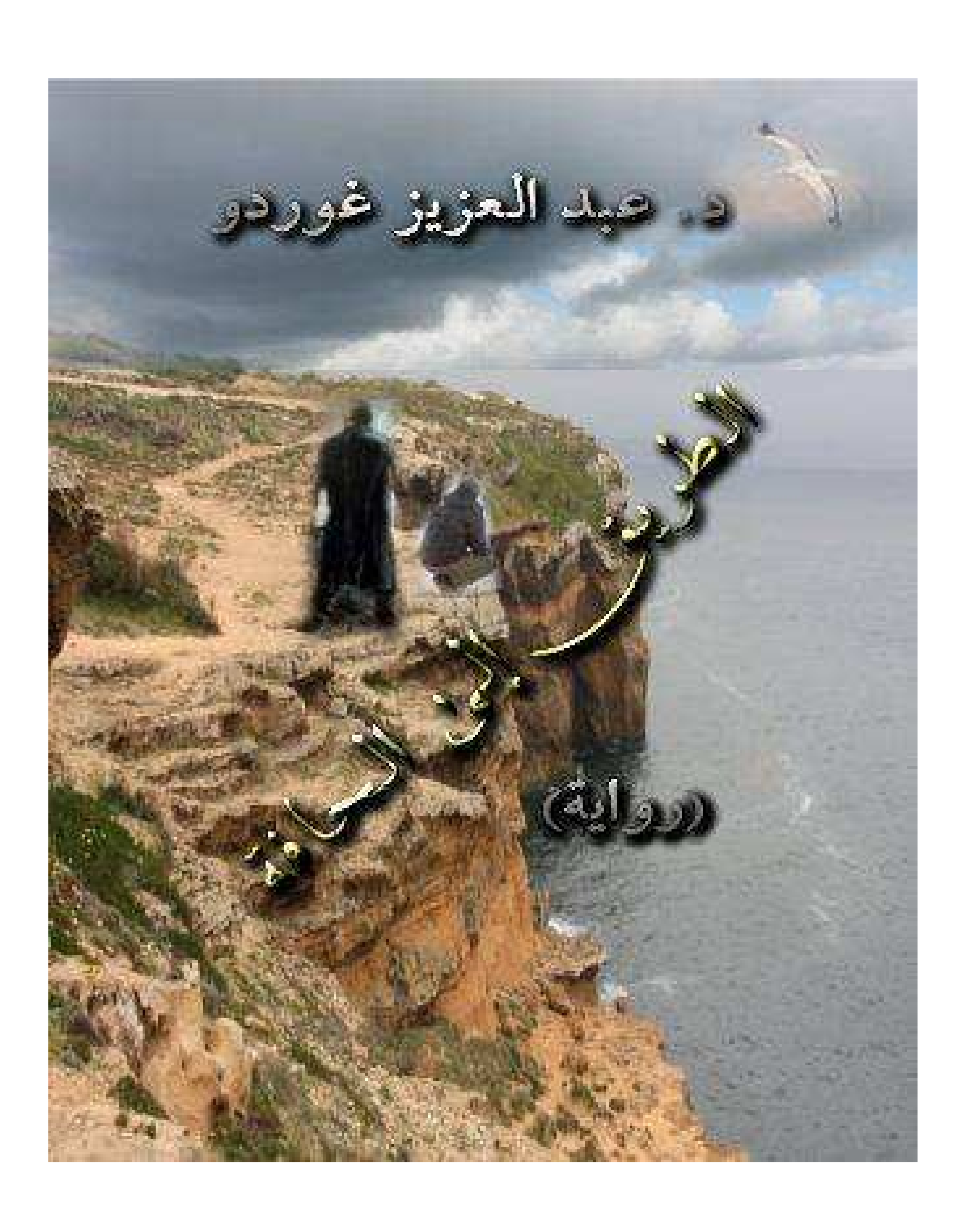

د. عبد العزيز غوردو
(رواية)

عبد العزيز غوردو

الطريق إلى الحافة

رواية

الإهداء:

إلى "غريغور سامسا"، في ذكرى ميلاده المائة:

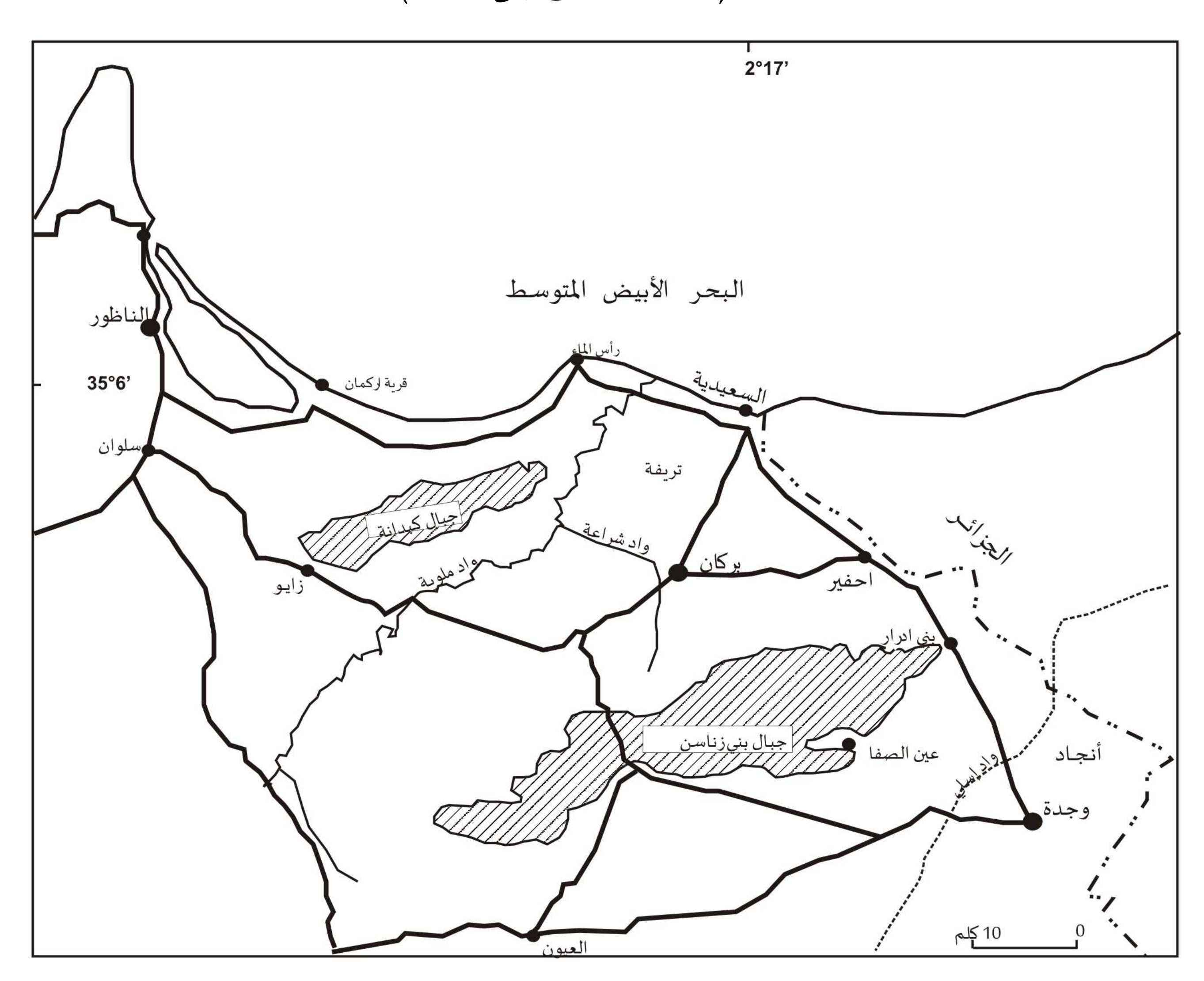
صعب جدا أن تشعر بالأسى من أجل صرصار!

تصدير:

"يا إلهي؛ أي مهنة مرهقة هذه التي اخترتها لنفسك!!"

فرانتس كافكا

(خريطة الطريق إلى الحافة)



الفصل الأخير/استهلال:

ويكأن الموت قد زارني مرتين؛

فانطفأت بالتدريج: في أولى، فثانية...

(الخميس خامس محرم 1433هـ الموافق لفاتح ديسمبر 2011)

يوم خريفي آخر يقترب من نهايته، ويستعد لاستقبال الغروب، وغيوم متشابكة لا تكاد تسمح إلا لضوء قذر بالعبور، تأبى أن تتبدد أو تستحيل مطرا.

في الجو يعبر سرب نوارس سماء بيت هادئ رابض فوق رابية على شاطئ صخري مقفر، وإلى جواره تتلوى طريق، غير معبدة وعرة؛ كثعبان. وفي المقدمة – غير بعيد – تبدو أجراف ممتدة ذات اليمين وذات الشمال؛ حيث تتلاطم الأمواج، وهي تتكسر على الشاطئ المهجور.

يقترب سرب النوارس من أحد الأجراف السحيقة، ثم يواصل عبوره المنساب مع الريح الباردة باتجاه البحر؛ يصفق أحدها بجناحيه، مرتين، وينأى بعيدا.

حافة الجرف شديدة الانحدار، والبرد قارس جدا، وعلى الحافة رجل يتشبث ببعض النتوءات، وهو يقاوم السقوط في يأس، ورجلاه تتدليان نحو النقطة التي تحبس الأنفاس – بالمعنى الحرفي للكلمة –؛ إنها مباشرة تحت الأرجل المتدلية، هناك في بؤرة الهاوية السحيقة، وهو يقول لنفسه فيما يشبه الهمس: "حزينا عندما بدأت الأمور.. كنت؛ وحزينا عندما انتهت.. كنت أيضا..."!

وغير بعيد إلى الوراء، وعلى نتوء صخري بارز حيث يبدأ المكان في تشكيل الانحدار الشديد نحو البحر، ينتصب رجل يشبهه تماما؛ كأنه توأمه المتماثل، وهو يتأمله باستخفاف قاتل...!

*** ***

الفصل الأول:

السيد "ميرسو"، السيد "سامسا"، الآخرون، وأنا...

(قبل ذلك بأسبوع)

حزينا عندما بدأت الأمور.. كنت؛ زوال يوم الخميس سابع وعشري شهر الله المحرم ذي الحجة من عام 1432 للهجرة؛ الموافق للرابع والعشرين من الشهر الأعجمي نوفمبر 2011 للميلاد.

البلد، كل البلد من حولي، تشرع صدرها المضطرب للانتخابات التشريعية غدا، وقد زعموا بأن الليلة ستكون مخصصة للصمت، كما زعموا بأن كل شيء بعد غد سيكون مختلفا عن الماضي؛ أما أنا فكنت وحدي، كما كنت دائما، أدس رأسي المهزومة في الرمال، أسائلها وكأنني مصاب بالتوحد:

- "ماذا ستكتب؟"

"أجل، ماذا ستكتب؟" سألت نفسي، مرارا، وأنا أنظر إليها من الخارج؛ كأنها غريب آخر لا أعرفه!

كنت قد راكمت خلال الأشهر القليلة الماضية ركاما من الفشل والصدمات. خرجت منه – أو ربما لم أخرج بعد – وأنا أتأبط إنذارين في العمل، ووفاة أمي بالتبني بذبحة صدرية (وهي الكائن الحقيقي الوحيد الذي كان يربطني بالعالم)؛ وعلاقة عاطفية عصفت بما تبقى من أحلامي لم أجن منها غير عذاب ممض، وفقدان للشهية، واضطرابات في النوم... وأصبحت أعتقد بأني قد وصلت إلى الحضيض!

لاحقا سأدرك بأني كنت واهما جدا، وأن الحضيض ما زال أبعد مني بمراحل سحيقة.

لذلك فعندما استأنفت عملي في الجريدة، قبل أيام، وعرضت علي قضية غامضة للكتابة عنها، لم أعرف ماذا أكتب! أنا المهجّر قسرا نحو قارة الكتابة بلون البنفسج، والعاجز أصلا عن الكتابة عن أي شيء في الظروف التي كنت أمر بها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بقضية قتل، أو انتحار، غامضة فعلا. قضية بدا كل شيء فيها ممزقا كقطع أحجية "للغيرنيكا"! لا أعرف كيف أرتبها، أو أقرأها! لا أعرف بماذا أبدأ، ولا من أين! فقط كومة من الملفات، والصور، والأوراق، والمذكرات، والذكريات... تناثرت أمامي، وأنا أعيش فشلا ذريعا – على جميع المستويات – أفضى إلى حالة اكتئاب ميئوس منها!

*** ***

قبل أن تتوفى والدتي، كنت قد نقلتها إلى المستشفى، بعد أن اعتصرها الألم ذات ليلة، ولست أدري لماذا تحدث الأشياء الكبيرة، كالموت، دائما ليلا! وقبل ذلك، كنت قد اعتُقلتُ بتهمة السب والقذف، وهي تهمة لُفّقت لي؛ لأني كتبت موضوعا لم يعجب "فصيلة" معينة من الناس، لاسيما وأن البلاد كانت تعيش على كف عفريت، اسمه الربيع العربي، وكان ذلك سبب مرض والدتي. وبعد ثلاثة أسابيع، تم إخلاء سبيلي بعد أن اعتذرت، وتعهدت بألا أعود لمثلها، وكانت أمي قد ارتشت أحد القضاة؛ فوعدها بالإفراج عني، لكنه أخذ المال، ولم يف بالتزامه، وعندما ذهبتْ إلى المحامي، الذي توسط في ذلك، أنكرها، وقابلها بالشتم، ولم أعرف لماذا لم يرفع على نفسه دعوى سب وقذف! لكنها كانت مناسبة كي أضيف إلى معلوماتي – وكنت لا أعلم بعد – بأن كثيرا من المحامين قد تحولوا إلى قوادين!

وبينما كنت عالقا بين السجن ومرض والدتي، قامت صديقتي – التي أحببتها بعنف – بفسخ العلاقة التي جمعت بيننا لسنتين، وارتبطت بالسافل الذي اتهمني بالسب والقذف!

مباشرة بعد أن نقلت والدتي إلى المستشفى، ندمت على نقلها إلى هناك؛ لأن الألم اشتد عليها أكثر، وهم لم يفعلوا شيئا غير انتظار وفاتها! كان هناك عدد قليل من الأطباء، معظمهم إما تحت التدريب، أو متعجرف، أو جاهل. وبعضهم جمع بين المساوئ الثلاثة: "التدريب" والعجرفة والجهل! ولم يكن يهمهم سوى التباهي ببزاتهم الكستنائية بخيلاء، كآخر سيدات القرون الوسطى اللائي كن يتباهين، وهنّ لا يعلمن بأنهن في طريق الانقراض!

وكان بالمستشفى أيضا عدد من الممرضات المكتنزات داخل تنوراتهن البيضاء، وكن لا يتوقفن عن ضرب أقدامهن بالأرض مع كل خطوة؛ فتهتز أردافهن ككرات ضخمة من الهلام، كأنهن يتعمدن إثارة المرضى، ليعذبنهم أكثر! وفي المرة الوحيدة التي أتيحت لي فرصة الاختلاء بواحدة منهن، وكانت تبدو في السبعين من العمر، قلت في نفسي: ألم تتقاعد هذه بعد؟! ورحت أفكر في الغبي الذي سماهن "ملائكة الرحمة"، وهن أقرب إلى زبانية العذاب! ثم غفوت بعد ذلك رغما عني، وكنت قد سهرت ليلتين متتابعتين، فأيقظتني الممرضة العجوز، التي لم تتوقف عن مضغ العلك وفرقعته، لتخبرني بأن أمي قد ماتت أثناء نومي، فلم أسألها لماذا لم توقظني لوداعها؛ لأني توقعت جوابها مسبقا. وكان عليّ أن أنتظر الطبيب المداوم حتى يؤكد الوفاة، وكأن الأمر يحتاج إلى تأكيد، أو أن أمي كانت

سترجع في كلامها، وتحيا من جديد. وعندما حضر الطبيب كانت الساعة قد جاوزت منتصف النهار بكثير، وبدا لي الأطباء الذين رأيتهم من قبل "وديعين" جدا مقارنة معه، وقلت في نفسي لا شك أن هذا كبيرهم الذي علمهم السحر! ورحت أراقب كيف سيثبت الوفاة، لكنه اكتفى بانتزاع ورقة من مفكرة على المكتب، وكتب عليها بضع كلمات بالفرنسية، وهو ينظر إلى الجثة المسجاة على السرير، ثم مهرها بتوقيعه الشريف ودفع بها إلى الممرضة العجوز، التي مررتها إليّ وطلبت مني أن أنهي بقية الإجراءات لاستلام الجثة. وهذا الأمر جعلني أتساءل لماذا لم يتواصل الطبيب معي مباشرة؟ وبدا لي غريبا أن يحتاج الأمر إلى وساطة، وكأنه حوار للطرشان! ثم إنه إذا لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى ما فعله "كبير السحرة" هذا، فأنا أيضا بإمكاني أن أثبت الوفاة، أي وفاة، بما في ذلك وفاته هو!

وعندما أردت استلام الجثة من إدارة المستشفى، ذلك أن أمي أصبحت مجرد جثة وعلى هذا الأساس أصبحوا يتعاملون معها، تضاعف شعوري بالندم على نقلها إلى هناك أول الأمر، حيث كان عليّ أن أمر بتعقيدات بيروقراطية لا أول لها ولا آخر، حتى أحصل على تصريح بالدفن. وأنا كنت متعبا جدا، ولم أنم طيلة ثلاثة أيام تقريبا، وكان عليّ أن أقضي يوما آخر في متابعة الترتيبات وحدي؛ وبعد أن حصلت على التصريح بالدفن، أخيرا، وجدتهم قد نقلوا الجثة إلى "الثلاجة"، واكتشفت عندما نزلت إلى القبو، حيث الثلاجة، بأن كل ما يربطها بموضوع الثلج والتثليج والثلوج... هو الاسم فقط، وأخبرني الممرض المسؤول، وكان يشبه الجزار، بأن أجهزة التبريد تعطلت يوم أمس، لكنني أعتقد بأنها كانت معطلة منذ أيام، إلا أنهم يقولون لكل قادم جديد بأنها تعطلت يوم أمس فقط، حتى لا يشعر بوخز الضمير لأنه أحضر أحد أقاربه إلى هذه المجزرة، ويُفلِت المسؤول، عن هذا الوضع الموبوء، من كل متابعة أو عقاب (هذا إن كان هناك أصلا من يتابع أو يعاقب)! لكن جثث الموتى كانت تفضح كل شيء – وكانت تنقل كأكياس الإسمنت على نقالات حديدية بيضاء متآكلة تصدر صريرا ناشزا عند دفعها – وقد أنتن بعضها فوق بعض، رغم أن الجو لم يكن حارا أبدا، وطبعا هذا أفسح المجال لمخيلتي لتملأ بعض الفراغ وتتساءل كيف يكون عليه الأمر عندما يشتد الحر صيفا؟

وفي المشرحة زارني عدد قليل من الناس، لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة، ولم أميز منهم بين من حضر للتعزية والمواساة ومن حضر للتشفي، فكلهم كانوا يرتدون الأقنعة

نفسها؛ ولم يعرض أي واحد منهم يد المساعدة، رغم أنني كنت وحدي ممزقا بين الإجراءات الإدارية المقرفة، وتجهيز القبر للدفن؛ وانتابني شعور غريب بأن الأمر كله يشبه لعبة "الروليت" الروسية التي لن تهدأ أو تستكين إلا بعد أن تسحب جميع عشاقها نحو الهاوية، خاصة فصيلة الأطباء الآيلة للانقراض؛ وزبانية الشيطان؛ وجزار المشرحة؛ والمُعزّين المُقنّعين... وأنا... (همسة: والمحامين/القوادين).

وفي المقبرة جرت عملية الدفن بسرعة كما لو أن الجميع كان يريد التخلص من عبء ثقيل ألقي على كاهله وهو كاره له. كان الوقت عصرا وهدأة المكان لم يكسرها إلا بعض الهمهمات الخفيفة ووقع الخطوات المتسارعة نحو البوابة الخارجية للمقبرة، كما لو أنها كانت تتسابق نحو قدرها المحتوم، أو لعلها كانت تفر منه؟! وربما كان الجميع يخشى أن يبتلعه أحد القبور الفارغة التي كانت تنتظر من هو صاحب الدور الموالي؟ فـ"الروليت الروسية" كانت ما تزال تدور؛ والموت يأتي دائما قبل موعده، ولذلك تجد جميع الموتى قد خلفوا وراءهم أعمالا لم تكتمل!

كان الجو يعبق برائحة التراب التي يتشبع بها الهواء بعد سقوط المطر. حركت الريح الشمالية القارسة إحدى الشجيرات القليلة عند مدخل المقبرة، فسرت في جسمي رعشة صقيعية باردة انزلقت مع عمودي الفقري حتى آخر فقرة، أحسست بها مضاعفة لأني كنت متعرقا بسبب كثرة الجري هنا وهناك. في أوقات كهذه لا أستطيع أن أمنع حزني المتوثب من إبراز مخالبه وغرزها بين رئتيّ بحثا عن موضع القلب، لنهشه، ويعتريني شعور بالخواء ينغل في داخلي كالسل. تنهدت بعمق فأعادت الريح صدى تنهيدتي إليّ، فابتلعت حزني واكتفيت من أرزائي بالصمت، ولم يخرجني من عالمي المغلق كالسر إلا صياح طائر أسود ضخم قادم من بعيد، لم أميزه بدقة، صفق بجناحيه ثم حلق أبعد. تمنيت لحظتها لو أني كنت مكانه حرا طليقا حتى لو كان مكان انتمائي مجرد مقبرة!

أسدلت جفنيّ فارتخت العينان. تذكرت أمي كما رأيتها آخر مرة وهي تحدق، بعينين زائغتين، في شبح الموت القريب بيأس، ربما كانت تحاول أن تكتشف أجمل ما فيه، لكنها لم تجده إلا بشعا من كل ركن وزاوية، وهو يطرق بوابتها المهترئة بقبضتيه، ويجر وراءه منجله الفولاذي، ويتلذذ بنقله من يد إلى أخرى، ويتعمد أن يجعله يلامس أرضية المستشفى المبلطة حتى يصدر صليله المستفز؛ إنها طريقته في القول: "أنا قادم!"

ثم تذكرتها قبل ذلك بسنين عديدة وقد عقدت مئزرها المطرز بلون بنفسجي في وسطها، وهي تتحرك بخفة فراشة داخل المطبخ، لتعد لي – وأنا بالكاد فتّحت عيني على العالم الخارجي ولم أعرف بعد كم هو قاس ومتوحش – كل ما يشتهيه طفل حلو لا يرى في العالم إلا قطعة حلوى كبيرة...

بدت لي ذكرياتي الطفولية مع أمي، وقد نأت بعيدا، كأنها لم تعد تخصني، كأنها تنتمي إلى شخص آخر، وعالم آخر... وبقلب حزين قارنت بين الصورة الأولى والثانية فانتهيت إلى العبث.

بعد أن دفنا والدتي تفرق الجمع القليل الذي رافق الجنازة، فعدت وحدي إلى البيت، واستلقيت على سريري. كان يغمرني حزن عميق عمق ثقب أسود، وغائر كالممرات الدودية التي تربط بين مجرتين تفصل بينهما ملايين السنوات الضوئية؛ وكانت تجتاحني موجة عارمة من التساؤلات الكئيبة التي لم أستطع أن أطردها من رأسي؛ كانت عنيدة وملحة كالذباب، وكنت كلما طردتها من جهة إلا وعادت إليّ من جهة أخرى لتحط على آخر ركن من دماغي كنت أفكر أنها ستحط عليه، فتضع بيضها هناك، ليفقس أفكارا سيئة أخرى، عنيدة وملحة كالذباب، تحط على ركن آخر من دماغي وتضع بيضها هناك...

ليلتها زارني صديق قديم، كنت أعرفه منذ أيام مراهقتي الأولى، يسمى "ميرسو Meursault" [1]، ولكنه اشتهر بيننا في المدرسة بـ"الغريب"، وكان غريب الأطوار فعلا، وقد حافظ على هيئته التي عرفته عليها منذ أزيد من عشرين سنة: عبثيا، لا مُباليا، متمردا على كل شيء... كانت عيناه تغمضان بخمول وتثاقل ككلب مغطى بالشعر، مما يعطي الانطباع بأنه شخص كسول، لكن لا يبدو أنه كان محرجا من ذلك. اقتحم عليّ خلوتي ولم يلق حتى التحية، وطبعا لم ينتظر أي رد عليها، وعندما كان يتثاءب، تماما كما فعل ليلتها مرارا، كان فمه يبدو كبيرا جدا مثل فم فرس النهر، أما عيناه الناعستان على الدوام فكانتا أشبه بعيني كلب "سان برنارد".

نكث شعره الأشعث من على ناصيته وقال: "أنا أيضا توفيت والدتي، كما تعلم، وكنت غريب الأطوار وقتها، لكنك تبدو أكثر غرابة مني، بل أكاد أجزم بأن حالتك ميؤوس منها"؛

---

[1]– بطل رواية "الغريب" لألبير كامو.

وتثاءب مرة أخرى دون أن يضع يده على فمه، ومن جديد بدا فمه كبيرا جدا كفم فرس النهر، أو أكبر قليلا!

قال أيضا – والعهدة عليه – بأن ذاكرتي قصيرة جدا، لأنه سبق أن نبهني، في إحدى زياراته السابقة (وبصراحة أنا لم أعد أتذكرها!) إلى أنني كنت أسحب نفسي إلى النوم كما لو أني أسحبها نحو الموت! بل إن سريري كان كسرير الموت نفسه! ثم سألني بماذا كنت أفكر؟ ولما لم أكن أفكر في أي شيء، لأني كنت وقتها شاردا فقط، فإن سؤاله – الذي بدا لي لأول وهلة بلا معنى – جعلني أفكر فعلا؛ خاصة عندما أضاف قائلا: "إن الحياة قاسية على الجميع، وهي تشبه قطعة ماس في حوض من الكربون..." ولم أفهم ما عناه بالضبط، وهذا جعلني أغرق في التفكير أكثر! ثم تابع حديثه الملغز – ولم أكن أرد عليه إلا بهمهمة تشبه أنين المحتضر – فقال: "لكي تشعر بأنك أقل توحدا، عليك أن تتمنى بأن يكون هناك كثير من المشاهدين يوم موتك؛ وأن يستقبلوك بصرخات مليئة بالحقد والكراهية؛ خاصة إذا كان موتك رميا من شاهق، حيث تتدلى نحو الهاوية السحيقة بشجاعة، حتى ليشتهي المار بجوارك أن يكون مكانك! ثم إن الصعود نحو الهاوية يحتاج إلى ارتقاء سقالة العدم، ما يضاعف الإحساس بالارتقاء والفخر والسمو..."

ثم سكت لحظة قبل أن يتابع: "...أما الموت عبر أنشوطة مشنقة، أو بالمقصلة، وقد خبرته، فلا أنصحك به؛ فالمقصلة، مثلا، توضع على الأرض مباشرة، بأبسط شكل ممكن، وأضيق جدا من كل ما تعتقد، ما يجعل العملية باردة لا دفء فيها!"

ولم أجد العلاقة بين المعاناة من "التوحد" (الذي تلبّسني قبل مدة) وتمني الموت، بحضور حشد جماهيري كبير: هل لأن جنازة أمي، تماما كجنازة أمه، لم يحضرها إلا عدد قليل من الناس؛ وأنه كان يبحث عن نوع من التعويض؟ لكن أي تعويض هذا، بل ما فائدته أصلا، إذا كان المشيعون سيستقبلوني بصرخات مليئة بالحقد والكراهية؟!

"صدق حقا من سماه بالغريب!" (قلت في نفسي، بعد أن تفرست فيه مليا).

بعد ذلك تجول في الغرفة بضع خطوات قبل أن يختم حديثه بنصيحة لم أطلبها منه: "إن بعض الخلوة قد يكون مفيدا في حالتك!" قال؛ ثم رحل دون استئذان، مثلما دخل أول مرة، وتركني أسحب نفسي إلى النوم كما لو أني أسحبها نحو الموت، تماما كما قال في زيارته التي لم أعد أذكرها!

في الأيام الموالية لم يزرني أحد، ولم أكن أتوقع أن يزورني أحد، فظللت قابعا في حجرتي لم أغادرها. كانت حجرة نوم عادية جدا، إلا أنها كانت صغيرة جدا، جدا... وتشبه شقا في أعلى الجدار. في وسطها منضدة تنتشر فوقها الملابس المبعثرة التي كنت أستعملها ثم ألقي بها كما اتفق بعد أن تتسخ، وأخرج أخرى نظيفة من دولابي القديم، ولما كانت الملابس المتسخة تتكوم فوق بعضها كانت أمي تحملها إلى المصبغة دفعة واحدة. لكن بعد وفاتها لم يعد هناك من يقوم بهذا العمل، ولم أقم به أنا أيضا، فكنت أستعملها، وأعيد استعمالها، حتى بعد أن تتسخ، وكأني عندما كنت ألقي بها فوق المنضدة، كنت أتوقع منها أن تنظف نفسها بنفسها!

على الجدار الذي يسند السرير كانت هناك صورة لسيدة ترتدي معطفا من الفرو، كنت قد قطعتها من إحدى المجلات المصورة ووضعتها داخل إطار مذهب، وكانت تضع يدها داخل سترتها كما كان يفعل نابليون بونبارت وهو في المنفى. وعلى الجدار المقابل نافذة أبقيها نصف مغلقة في معظم الأوقات، وكان باستطاعتي، كما حصل معي ليلة أمس، أن أسمع وقع قطرات المطر وهي ترتطم بالزجاج أو الإطار، وكنت أجد في ذلك دعوة إلى مزيد من الاكتئاب.

ليلة أمس هطل ودْقٌ أسود ظل يقرع النصف المغلق من نافذتي طوال الليل، وليلة أمس أيضا أطل عليّ جاري: السيد "غريغور سامسا Grégor Samsa"[2] الشهير بـ"المسخ"، – ولنأخذ المسخ هنا على وجهيه: السيء والحسن – من نصف النافذة الآخر الذي أبقيه مشرعا في أغلب الأحيان. مد السيد "سامسا" سيقانه التي كانت تبدو رفيعة على نحو بائس، مقارنة بباقي جسمه، ليقفز إلى داخل الحجرة، فبدت بالإضافة إلى نحافتها الشديدة مسننة بصورة منفرة تدعو إلى القرف. كان يشبه حشرة قبيحة عملاقة حقا، ولم يكن يبالغ عندما وصف نفسه بذلك يوما. كانت جثته الصلبة تشبه الدروع ومقسمة إلى فصوص مقببة بنية اللون.

ولما بادرني بتحيته الخجولة كنت ما أزال أتأمله وأنا أتساءل: ترى كيف حدث له هذا؟ وتحسست ظهري بكلتا يدي، بعد أن خالفتهما ومررتهما من تحت إبطيّ كما لو أنـي أعانق نفسي بقوة، وقلت: ربما كانت حالتي أسوأ من حالة السيد "ميرسو"، لكن يقينا أنا لم

[2] – بطل رواية "التحول" لفرانتس كافكا.

أصل بعد إلى هذه الدرجة من السوء، ونظرت إلى القشرة البنية المتصلبة على ظهر السيد "غريغور سامسا".

وفيما كنت أعقد مقارنتي محاولا أن أجد لي مكانا بين السيء والأسوأ، قال السيد "سامسا"، بعد أن أجال نظره في مختلف أرجاء الحجرة، بأنها تشبه كثيرا حجرته التي كان يعيش فيها، حتى لكأنها هي (على ذمته طبعا لأنه لم يسبق لي أن زرته في شقته)؛ وأنه قد حصل له فيها تحول كبير غير مجرى حياته.

قال أيضا بأنه احتاج إلى أدوات من نوع خاص حتى وصل عتبة الخلاص، لأنه احتاج إلى عقدة داخل عقدة لإتمام إبداعه التشكيلي على هيئة صرصار، لكن هذا أحال حياته إلى جحيم أياما عديدة، قبل أن يصل خط النهاية!

"لا بد أن يحصل لك تغيير كبير يجعلك تستيقظ ذات صباح، بعد ليلة حبلى بالكوابيس المرعبة، وقد استحلت إلى كائن بائس مشوه كهوامّ الأرض، حتى تواجه نفسك بالسؤال الأنطولوجي الكبير: ما الذي حدث لي؟" قال السيد "سامسا" قبل أن يضيف: "لا بد أن تتألم أيضا وتعيش حالة من الاغتراب الفظيع، ثم تنفصل عن ذاتك حتى تفهم، ليس ما يجري في العالم الخارجي فقط، بل تفهم ما يجري داخلك كذلك!"

"... أقصد حتى ترى كيف ينظر إليك الآخرون على حقيقتك، وكيف تنظر إليهم أنت على حقيقتهم أيضا؛ وهذا الأمر يحتاج تغييرا كبيرا، وقاسيا، بحجم الفاجعة، ولسوف يتملكك الفزع الشديد عندما ترى الأشياء على حقيقتها العارية في النهاية، ما قد يجعلك تتمنى أن تلفظ آخر أنفاسك من منخريك حتى تريح وتستريح..."

أذكر كذلك أنه قال ناصحا، رغم أني لم أطلب نصيحته أيضا: "إذاك عليك أن توسع صدرك لأن الغضب لن يحل إلا مشاكلك السطحية..."

فقلت: – "يبدو أنك تستمتع بعذابي!" فقاطعني بسخرية مريرة:

– "وما فائدتي إن لم أفعل؟"

(ثم نصحني بأن أختلي بنفسي – تماما كما فعل السيد "ميرسو" – لكن دون أن أبالغ في ذلك كثيرا...)

فعرفت بأن أصدقائي جميعا سواء!

هكذا أجمعوا، إذن، على أنني مجرد ضرس في ناعورة مثلومة، مجرد راكب إضافي، أو مجرد حالة، لها ما يشبهها في جميع بقاع الدنيا الواسعة، التي ضاقت في عيني. إنها "الروليت الروسية" نفسها في كل مكان وزمان؛ تبدأ كلعبة، وتنتهي بفاجعة. قدرنا المكتوب في جيناتنا الوراثية، حتى قبل أن نولد: فبذرة البلوط لا بد أن تنتج شجرة بلوط، وبذرة الصبّار لا بد أن تنتج شجرة صبّار، وبذرة الزقوم لا بد أن تنتج شجرة زقوم، وبذرة "ثلاجة معطلة"، في مشرحة، لا بد أن تنتج "ثلاجة معطلة"، في مشرحة، وبذرة أنظمة سياسية فاسدة لا بد أن تنتج أنظمة سياسية فاسدة... ولذلك لا داعي لتفظيع الأمور، لأنها فظيعة من الأصل!

أقنعت نفسي، تماما كما فعل السيد "ميرسو" من قبل، بأنني لا أتحمل أي مسؤولية عن كل ما وقع، وبالذات موت والدتي وما تلاه بالاستتباع، ونفيت عن نفسي كل تهمة تورطني فتجعلني متواطئا عليه، أو طرفا فيه، أو سببا له... لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا أجدني الآن في منتصف الطريق نحو مصير السيد "غريغور سامسا"، بعد أن قطعت نصف المسافة الأخرى التي تبعدني عن السيد "ميرسو"؟

*** ***

كنت أقف إذن في منتصف الطريق بين صاحبي وجاري، وقد نصحني كلاهما بالاختلاء بذاتي، ربما أنجح في تجاوز المرحلة، على الأقل فيما تبقى لي وهو العمل، أو فيما تبقى منه هو أيضا! إلا أن اعتزالي في البيت – وقد أصبح يشبه الرهبنة – كان يرغمني على التفكير في أمور كثيرة، وذكريات، كنت أسعى جاهدا للهروب منها، وهو ما كرس لدي القناعة بالرحيل بحثا عن خلوة من نوع مختلف.

هكذا قررت أن أغادر البيت، هاربا من عالمي الموبوء، وكان الوقت قد قارب الظهر – من يوم الخميس 24 نوفمبر 2011 – للذهاب إلى مكان آخر: مكان للوحي والإلهام والانعتاق... يجعلني أستطيع إعادة تجميع قطع "الغيرنيكا"، عساي بذلك أنجح في ترميم ذاتي وإعادتها، أو استعادتها بالأحرى!

قلت، وأنا أدير محرك السيارة – التي اشتريتها بما كنت قد ادخرته طوال سنتين لمصاريف زواج لم يكتب له أن ينعقد – "سأختار وجهتي أثناء المسير!" (ذلك أن المسافر الجيد هو الذي لا يعرف وجهته، أما المسافر المثالي فهو الذي لا يعرف من أين جاء) وكذلك كان.

عبرت أحياء "وجدة" باتجاه الغرب، لكن عندما وصلت المدار الحضري انعطفت إلى الشمال... رغبة حثيثة دفعتني لذلك؛ رغبة بمعانقة زرقة البحر المتوسط الشهيرة في هذا الخريف الكئيب، ورغبة أكبر في أن أجد جوابا للسؤال الذي حاولت الفرار منه لكن صداه ظل يتردد في رأسي كالنحيب:

- "ماذا ستكتب؟"
- "ماذا ستكتب؟"
- (...)

*** ***

الفصل الثاني:

رئيسة التحرير

(في وقت سابق لذلك بساعات؛ صباح اليوم نفسه/الخميس 24 نوفمبر 2011)

... ثم أصلحت ياقتي، وبأطراف أناملي قرعت الباب، قرعا خفيفا.

صوت أنثوي خشن دعاني للتفضل بالدخول.

في الداخل حيث عبق المكان برائحة عطور "برادا" الممزوجة برائحة السجائر، كان كل شيء مبهرا؛ وعلى حافة مكتب الزّان الروماني الواسع جلست سيدة أنيقة، في منتصف العمر، وقد أفرجت ما بين ساقيها قليلا.

– "تفضل.." (قالت.. وابتسامة خفيفة، خفة استهتار، ارتسمت على شفتيها الياقوتتين) ثم، وبأنامل مذخّرة بالخواتم كمشط الرصاص، أشارت إلي بالجلوس.

تأملت شفتيها المنتفختين الجائرتين، وصدرها الذي يكاد يمزق القميصَ فوقه من فرط حقنه بالبوتكس، وقد انبرى متصديا للأزرار التي خنقته ففتّحها بعنف رعشة شبقية... ثم تسمرت عيناي رغما عني، للحظات، بين ساقيها عميقا بحثا عما تخفيه الظلال، قبل أن تنزلقا على مؤخرتها المندفعة إلى الوراء، وقد أثقلها الكولاجين. ربما هي العادة فقط ما جعلني أنظر إلى المحظور؛ فما عادت نفسي تشتعل كما السابق، بعد أن صار كل شيء بطعم الرماد في فمي، منذ أن انتهكت رجولتي – في مخافر الشرطة قبل خمسة أشهر – وتعرضت للإخصاء. واستفزازي هنا كان أشبه بدعوتي لممارسة الجنس على هامش جنازة والدتي، وفوق قبرها.

على الأريكة المجاورة للمكتب جلست سيدة أخرى، على شاكلتها أيضا، وهي الآن مجرد زميلتي في العمل، لكنها كانت في السابق أكثر من ذلك بكثير؛ ولي معها قصة طويلة أختصرها في جملتين: "إنها من النوع الذي يجعلك ترغب في شرائها بمجرد أن تراها؛ لكنها أيضا من النوع الذي يخونك، ويجعلك تشعر بأنك خنتها..."!

المرأتان كانتا منهمكتين في حديث حول العمل، أو افتعلتا بأنهما تتحدثان عن العمل، لأن كل شيء هنا كان يشي بشيء آخر أقرب إلى الاستعداد لحفلة جنس جماعي! أما أنا فقبعت في مكاني هادئا كبوذا وسكتّ...

توقفت السيدة الأولى عن الكلام؛ انزلقت بتثاقل من على حافة المكتب فارتفعت تنورتها أكثر إلى الأعلى، ولم تبالي بذلك، أو لعلها تعمدت ذلك! لكن فيما عدا النظر فإن

شيئا مني لم يتحرك، حتى بعد أن هزت مؤخرتها، التي بدت أكثر استدارة وشقاوة، فوق كعبها العالي. وبتثاقل أكبر توجهت نحو كرسيها الوثير خلف المكتب وجلست – إذاك انتبهتُ إلى أن سترتها كانت معلقة على ظهر الكرسي – ثم التفتت نحوي والابتسامة الخفيفة، الماكرة، لا تفارقها:

– "ماذا هناك؟"

– "لا شيء (قلت) غير أني لا أعرف كيف أكتب "قصتي"؟"

– "والمطلوب؟" (رفعت حاجبيها إلى الأعلى، وقد خفت الابتسامة قليلا، وبدأت في مداعبة خصلات من شعرها المصبوغ بلون الأكاجو، وعندما كانت ترفع ذراعها أكثر كان يبدو إبطها الحليق أبيض كالحليب).

– "أرجو أن تساعديني على كتابتها" (تابعتُ بحيرة؛ أما هي فتوقفت عن مداعبة شعرها ووضعت مرفقيها على المكتب وانحنت قليلا، فبرز صدرها نافرا وأكثر صلابة).

– "أنا رئيسة تحرير الجريدة لكنك المسؤول عن صفحة الحوادث..." (صمتَتْ للحظات ثم مدت ذراعيها أمامها وتمطّت ككلبة غجرية؛ قبل أن تتابع بنبرة تشفٍّ وهي تنظر ناحية زميلتي): "...القصة! إنها مثل القَدَر؛ وآسفة لأني لا أعرف كيف أساعدك على كتابة قصتك؛ أقصد لا أعرف كيف أساعد أحدا على كتابة قصته، أو إتمامها، فكل واحد يكتب قصته بيده، تماما كما يكتب قدَرَه!"

(في الواقع هي كانت أكثر من مجرد رئيسة تحرير؛ فهي مالكة كل شيء هنا: العالم كله لها، على الأقل هذا ما كان يبدو لي: فالجريدة لها، والموظفون – وأغلبهم من النساء – لها، والهواء الذي يملأ المكان لها، والعمارة التي تشبه قطعة بللور مصقولة، لزجاجة عطر فاخر/فاجر، لها أيضا... ثم إني كنت أعلم بأن خلف هذا كله تختفي سوق رائجة للدعارة الراقية وممارسة الابتزاز... وهما لها أيضا! أما أنا فكنت مجرد القِنّ الذي بُني كل هذا على كتفيه في البداية، لكنه لم يجن في النهاية إلا العرق والدم والدموع، كعاهرة استنزفت بعد سن الخمسين).

– "لم أقصد الكتابة" (استدركت)، "لكن وقائع القضية تفلت مني حتى إني لا أعرف هل يتعلق الأمر بجريمة قتل أم قضية انتحار؟! وأنت تعلمين بأن الأبواب كلها باتت موصدة في

وجهي، مذ فجرت الفضيحة السياسية قبل حوالي خمسة أشهر، وكأن تعليمات صدرت من جهات عليا ضدي، وضيقت علي الخناق، فلا أبدأ التحقيق في شيء إلا وأفشل فيه..."

صمتُّ للحظات ورحت أستحضر ما حصل عندما كتبت للمرة الأولى، والأخيرة، موضوعا في السياسة... أعني السياسة فعلا! فاختفيت قسرا لثلاثة أسابيع؛ خرجتْ منها رئيستي في العمل بصفقة كبيرة، وعلاقة جديدة مع أحد أعيان المدينة. أما أنا فخرجتُ من هذه التجربة بقناعتين:

الأولى: أنه لا يكتب عن السياسة، أو فيها، إلا تاجر مخدرات رخيصة، أو عميل في المخابرات، أو طبيب في الجيش، أو شاعر مرتزق!

والثانية: ألا أعود للكتابة فيها، أو عنها، أبدا، حتى أصبح واحدا من هؤلاء!

عفوا ربما هناك قناعة ثالثة كنت أحتفظ بها لنفسي، وبحت ببعضها قبل خمسة أشهر، وها أنا أعيدها الآن:

"في العمق لا تتغير الحكومات المتعاقبة، حتى بعد الانتخابات، فقط هم يعيدون طلاءها بألوان الأحزاب السياسية كل مرة؛ فالأوضاع فاسدة أبدا، لأن جميع السياسيين سواء: سرطانات، أورام خبيثة لا تتوقف عن النمو؛ وهم – منذ فجر التاريخ إلى الآن – مجرد ظواهر صوتية. إنهم يوهموننا، أو يتوهمون بأنهم يوهموننا، بأن حيلهم السحرية تجعلهم قادرين على الجمع بين السياسة والأخلاق من أجل الصالح العام! والواقع أنهم في أوهامهم البئيسة هذه أشبه بجماعة من القرود تجهد نفسها للحفاظ على وقارها وهي منهمكة في علاقة جنسية.

ولذلك أنا أكره الحكومات بإطلاق، لأن أصغر وزير في أي واحدة منها هو أكبر لص في البلد، وعليك أن تعد أصابعك بعد أن تسلم عليه... أما كبيرها – ومهما كان لون ربطة عنقه الذي يشير في الغالب إلى لون حزبه – فإن سيرته لن تختلف عن سيرة العاهرات.

أكثر من ذلك: أنا أكره الحكومات، وأكره الأحزاب السياسية، وأكره الانتخابات، وأكره العاهرات، وأكره العاهرات اللائي يمارسن السياسة، وأكره السياسيين الذين يمارسون العهر... ولكم أن تتخيلوا ما الذي يمكن أن يحصل عندما تتحالف السياسة والعهر!

ثم إن أكبر الصفقات السياسية، تماما مثل أكبر المغامرات الجنسية، لا تتم تصفيتها إلا في الفراش، ما بين تأوهات وتنهيدات وارتعاشات...

قد يظن البعض بأني أحتقر بلدي!؟ وسأقول: للأسف نعم؛ وللأسف أيضا أن هذا يحصل مع الجميع... ولا داعي لأن تهنئوني، أو تعزّوني، على هذا!

(...)

(...)"

هذه مقدمة ما كتبت في السياسة، قبل خمسة أشهر، ولا داعي لأن أعيد كل ما كتبت؛ لأنني غير مستعد لأن أختفي، قسرا، لثلاثة أسابيع أخرى، أخرج بعدها بشرج متورم من أثر الجلوس على القنينات الزجاجية الفارعة...

بعد ذلك كان عليّ أن أعتذر للسياسيين وللعاهرات فاعتذرت؛ اعتذرت لكل السياسيين "يمين" الصفحة الأولى، وإلى "يسارها" اعتذرت للعاهرات، سواء أولئك الذين/اللائي كتبت عن/هم/هن أم لا، اعتذارا أقرب إلى التوسل.. وقلت:

كل ما في الأمر أنني اعتقدت...

فقالوا: وكل هذا الأمر وقع لأنك اعتقدت!

قلت: فقط كانت نيتي...

فلم يتركوني حتى أتم جملتي وقالوا: النوايا الحسنة وحدها لا تكفي!

فكان من الأمر ما تقدم، وانتهيت بشرج متورم، ونزلة برد حادة؛ ومرضت والدتي بالتبني، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك؛ وهجرتني صديقتي التي كنت أحبها، وارتبطت بأحد الفاسدين الذين كتبت عنهم؛ ثم تلقيت إنذارين بالفصل عن العمل لأسباب لم أفهمها لحد الآن... فهل لي أن أكتب في السياسة، أو عنها، بعد كل هذا؟

(...)

(...)

(صمتُّ للحظات، نظرتُ إلى رئيسة التحرير، وأنا أعلم بأنها جزء من المؤامرة التي حيكت ضدي، ثم قلت):

– "أعتقد أنك تملكين بعض المفاتيح..."

– "يعني؟" (قاطعتني)

– "كلمة منك لبعض المسؤولين عن الملف، ربما تكفي لفتح بعض ما انغلق... على الأقل ترسم لي ملامح المقدمة..."

- "تعرف "موزارت"!" (قاطعتني ثانية)
- "ومن لا يعرفه؟" (تساءلت ببلاهة وأنا أفكر: كيف أمكن لعاهرة أن تكون مثقفة؟)
- "في إحدى الحفلات تقدم إليه شخص وطلب منه أن يعلمه كيف يكتب سمفونية؛ فقال له موزارت: أعتقد بأنك ما زلت صغيرا على ذلك! فقال الرجل: أَوَلم تؤلف أنت سمفونية ولمّا تبلغ تسع سنوات!؟ فأجابه موزارت: بلى؛ ولكني لم أسأل أحدا كيف أؤلفها..."

فهمت المغزى وغاظني ذلك، خصوصا في حضور زميلتي في العمل، وقد كان لي معها قصة طويلة اختصرتها في جملتين... (أظن أنني ذكرت ذلك من قبل)!

طأطأت رأسي، وكأني تعرضت للإخصاء مرتين، واستأذنت في الخروج.

وأنا عند عتبة الباب أتبعتني رئيسة التحرير بجملة فيها من الشماتة والازدراء بقدر ما فيها من التوعد والتهديد:

- "أرجو أن تنجح في إتمام موضوعك قبل نهاية الأسبوع...؛ خاصة وأنك تعرف بأن هذه المرة ستكون الثالثة"! (في إشارة منها للإنذارين السابقين، وأن الثالثة لا شك تكون الفصل عن العمل)؟

أما صديقتي السابقة، التي لم تشأ أن تفوّت الفرصة، فنظرت إليّ وكأنها تنظر إلى حجم الخسائر التي أحدثَتْها:

- "هل تريد شيئا آخر؟" (قالت، وصوتها يعلو كبائعة زلابية من الشوارع الخلفية).

دارت عيناي في كل اتجاه، وكأنني أبحث عن العبارة المناسبة، حتى استقرتا أخيرا على خريطة للعالم معلقة على الجدار، فقلت:

- "لا شيء؛ فقط أريد أن أرى العالم يحترق!"

خرجت مذموما مدحورا، وأنا أسائل نفسي:

ماذا ستكتب؟

ماذا ستكتب؟ (وكأني أصبت بالتوحد...)

*** ***

الفصل الثالث:

في "كوكب القردة"

شاردا كنت وأنا أقود سيارتي بهدوء، بطريقة ميكانيكية بحكم العادة، عبر الشوارع الكبرى لمدينة وجدة؛ التي من فرط ما عبرتها، وأعدت عبورها، فإنها باتت رتيبة مملة لا تحمل أي ملمح للفرح أو الحزن في ناظري؛ بل هي هكذا: محايدة وكفى.

من كل هذا المشهد البانورامي الجامد للمدينة، وحده القمر أثار انتباهي فعلا وهو يتربع في سمائها ما يزال؛ يعبر مداره الهادئ في الفضاء رغم أن الوقت قد قارب الظهر. كان نور الشمس قد أدركه منذ الصباح، ففقد بريقه الفضي المتوهج الذي يكتسيه عادة في الليل. لذلك كان يحتجب بين الفينة والأخرى خلف السحب الداكنة المتناثرة، وعندما كان يعاود الظهور كان يبدو ككل شيء هنا: رتيبا ومملا مثل الجدران، والناس، والشمس، والزمن الذي يساهم في تشكيله، والذي يوهمنا بأنه جامد كذلك؛ لكنه يَفْجَأنا في النهاية بوجوه هرمة لم تكن لنا، وأجساد عاجزة لم تكن لنا أيضا... تتهاوى نحو الهاوية السحيقة في النهاية.

لكن ما لا ننتبه إليه غالبا أنه بينما يجتاز القمر مداره، وتجتاز الشمس مدارها أيضا، في اللعبة التي أتقناها لصناعة الزمن، فإنهما يقدحان الشعلة بداخلنا، مما يدفعنا لاجتياز مداراتنا أيضا. إنها مدارات عديدة، ومتداخلة، يصعب التنبؤ بها – كالالكترونات التي تدور حول النواة وتغير مداراتها باستمرار – وهي تُنصِّب نفسها اختبارات للغفران! لكن إذا كان ذلك كذلك فهل الموت، بما هو نهاية الزمن الحي المنفتح على مدارات المجهول، هو المطهر الحقيقي؟

للشمس، والقمر، ونحن... مدارات إذن، ولوجدة المحايدة الصماء مداراتها أيضا، وهي التي كنت أعبرها، شاردا، هذا الزوال؛ وكانت متقاطعة، ومتشعبة، ومتداخلة...

عند إحدى هذه التقاطعات/التشعبات، وبالضبط عند التقاء المدار الحضري الذي يصل جنوب المدينة بشمالها، تتوضع مجموعة أسواق مركزية كبيرة. لما وصلت إلى هناك انتبهت من شرودي فجأة وانعطفت نحو أحدها للتبضع قليلا، "فقد يطول بي المقام في رحلتي" (قلت في نفسي).

كانت السماء تمزج بين الرمادي والأرجواني، والأسواق المركزية أشبه بكلاب حراسة ضخمة رابضة عديمة الشفقة. وفي الخلفية امتدت مجموعة من التلال الصغيرة المخضرة المائلة للاصفرار، كأنثى كشف ثوبها الزمردي الشفاف عن منحنيات جسدها واستداراتها الممتلئة.

عندما أكون في أماكن عامة صاخبة وتجمعات أسواق من هذا النوع أشعر وكأني وقعت في "كوكب للقردة"!

وقد كان "كوكبا للقردة" فعلا.

اقتربت من البوابة الزجاجية الكبيرة حيث كان أحد الشواذ، بملابس مثيرة، يتخنث في وقفته وقد نمص حاجبيه... فذكّرني وجهه الأمرد بوجه زعيم سياسي أعرفه حتى لكأنه هو، أو لعله هو!

قلت في نفسي (وحديث النفس يستهويني كثيرا): "الجنس الثالث أصبح موضة هذه الأيام"!

بالقرب منه وقفت فتيات أربع يتغامزن به؛ إحداهن كانت ندية ومخملية كزهرة جوري حمراء – كتلك التي أحببتها كثيرا – (وقد ذكرت، أو لم أذكر، من قبل بأن قصص الحب الكبيرة تعيسة على الدوام!) أما الثلاثة الأخريات فكنّ مجرد أكسسوارات يؤثثن الفضاء؛ وهنّ – تماما كالمخنث الذي إلى جوارهن – مزعجات؛ وأعتقد بأن المخنث معني بـ"نون النسوة" هنا أكثر منهن!

قلت في نفسي أيضا: هذا يذكرني بأسوأ يوم في حياتي، حين اعتقلت وأرغموني على الجلوس على زجاجة مشروب غازي، شهير جدا، حتى تشققت مؤخرتي – مما جعلني أسير ببطء كالحرباء، وأرفع إليتيّ عند المشي – ثم وضعوني في زنزانة مع أعتى المجرمين؛ وأنا ما زلت مذهولا تحت هول صدمتي الأولى، تقدم نحوي أضخمهم جثة، وهمس في أذني كفحيح حية: "أين تعلمت هز ردفيك أيها المنحرف؟"

لم أكمل حديثي مع نفسي حتى قاطعني الشاذ المنحرف فعلا:

– "أريد التحدث إليك..."

– "تحدث إليهن!" قلت ساخطا وقد أشرت إلى الفتيات، وكنت أعلم بألا حاجة له بهن.

لكن كلامي لم يثره أبدا، بل نزل عليه بردا وسلاما، ولذلك واصل حديثه وقد بالغ في التغنج: "أي هواجس جالت برأسك الجميل؟" قال؛ فأجبت:

– "أقلعت عن جنس الأنثى مذ كان ناعما، ولم تكن لي علاقة بالمخنثين يوما."

ومن جديد لم يبد عليه أي تأثر من كلامي، وكأنه اعتاد مثل هذه الردود، فبدا واثقا من نفسه أكثر من اللازم (تماما كالزعيم السياسي الذي يشبهه)؛ واكتفى بوضع سبابته بين

أسنانه وضغط عليها ضغطا خفيفا، ثم أمال رأسه قليلا وقال: "أبعتَ كل شيء من أجل امرأة؟" ولم ينتظر جوابا على سؤاله الذي طرحه، بل علق عليه مباشرة، وقد تقمص دور الحائر(ة): "يفعل الرجال أشياء غبية في حضور جسد فاجر لعوب!"

قلت – ولم أعد أدري هل أنا بحضور ذكر أم أنثى أم زعيم سياسي – إن الدماغ يتوقف عن التفكير في حضرة جسد فاجر لعوب. ثم أضفت مشددا على صفات الجسد: "التقيت صاحبة الجسد الفاجر اللعوب أول مرة في حانة؛ كان الوقت ليلا وكانت ثملة جدا، وأنا انتشلتها من المستنقع، لكنها دفعتني إليه، وداست على كرامتي بعد ذلك..." ثم توقفت فجأة عن الكلام وتساءلت بيني وبين نفسي: "لماذا أحكي له سيرة حياتي؟" هل لأني لم أتكلم مع شخص آخر منذ وقت طويل؟ أم فقط لأنه قرأ ما بداخلي كعرافة بصيرة؟ كيفما كان الحال فإني تورطت بالاسترسال معه في الحديث.

حاولت متابعة مسيري فوقف بيني وبين مدخل "كوكب القردة" وقال: "أنت مَثَلي الأعلى!" وضحك، فقلت مستهزئا: "كأنك تعرفني منذ زمن طويل!" فقال، مواصلا حديثه الأول: "من المحبط جدا أن تكون مخلصا إلى هذا الحد! فتضع صورة من تحب في جيبك الداخلي، قريبا من القلب. وبعد مدة تكتشف بأنها لا تستحق حتى أن توضع في جيبك الخلفي؛ ويستحيل إخلاصك إلى كابوس..."

وجدت تحليله منطقيا جدا لذلك وافقت عليه، بل وأضفت بأن كوابيسي كثيرة، وهذا واحد منها فقط؛ قد يكون أقلها حقارة، لكن هذا لا يمنع عنه صفة الكابوس، وفي كل كابوس لا بد أن يتأذى أحد ما! فعلق على كلامي بسؤال استنكاري جديد: "وهذا الأحد كان أنت؟" ثم استدرك: "لا شك أنها وجدت متعتها في تدميرك، وهذا قمة السادية، كأن يسرق أحدهم مالك ثم ينفقه على زوجتك التي هجرتك، ورحلت معه..."

والحقيقة أني وجدت معظم كلامه على صواب، مرة أخرى، لكني وجدت أيضا بأنه تمادى كثيرا في تحليله، وأن مجرد وقوفي معه (أو معها؟) هو مثار للشبهة؛ ثم إن صديقتي السابقة في نهاية الأمر لم تكن إلا حلقة من الحلقات الأخيرة في مسلسل مأساتي...؛ ولذلك كله حزمت أمري ودفعته من أمامي وقلت:

– "أنت تقرفني بكل هذا؛ وفوق ذلك أنت تبصق في وجهي مع كل حرف تنطقه..."

- "أنت وغد حقير." (قال على طريقة المخنثين التي تدعي الجدية؛ فذكّرني بسكّير ثمل يجهد نفسه للسير في خط مستقيم.)
- "يمكنني أن أقول الشيء نفسه عنك." (قلت) ثم اعتراني شعور قوي بالتمرد فانتفضت مثل الظربان في وجهه: "يخنة القنبيط تشعرني بالقرف، والحداثة تشعرني بالقرف، وأنت تشعرني بالقرف، وستموت بأكثر الطرق خلاعة لأنك جاهل، ولأن الجهل لم يكن عذرا في يوم من الأيام، ولأني لم أكن راضيا عن أداء حكومة السحاقيات التي تحكمك..."
- "بشرفي..." (انبرى مهددا، على طريقته دائما)

(قاطعته): - شرفك لا يساوي حتى خيط حذاء الراقصات الذي ترتديه... (ثم دفعته بقوة من أمامي فترنح).

نَظَرَتْ إليّ الفتيات الأربع (أو الخمس إذا أحصيناه في عدادهن) في ذهول! وفيما كنت أقتحم البوابة الزجاجية، كقائد عربي مهزوم يدعي البطولة، قلت: "أنتن أيضا معنيات بهذا الكلام"؛ ثم انطلقت...

*** ***

بعدما عبرت البوابة الزجاجية لم أتمعن كثيرا في التفاصيل، حتى إني في البداية لم أكن أرى إلا أشباحا وظلالا تتحرك خارج إطار رؤيتي. وعندما ابتسمت لي الموظفة الواقفة، مباشرة بعد أن عبرت الممر الالكتروني الضيق، انتابني إحساس غير متوقع، فالتفتُّ ورائي ظنا مني بأنها تبتسم لشخص آخر غيري، وعندما عاودتُ النظر إليها وجدتها قد بدت محرجة جدا، وقد انطفأت الابتسامة من وجهها.

كان وجهي قد تحول إلى منحوتة برونزية صارمة منذ مدة طويلة، وأصبح يشبه كثيرا وجه جاري السيد "سامسا". نظرت إلى إحدى المرايا، وما أكثرها في "كوكب القردة"، وحاولت أن أبتسم فلم أستطع، فقط طالعتني الصورة البرونزية، المتجهمة، المتصلبة، الموغلة في الصرامة حدّ التطرف المَرَضي.

كنت أشعر كما لو أني أحمل غثيانا أبديا في حلقي، ورغم ذلك ظل اعتقاد دفين يساورني بأن هناك من هم أشقى مني، وهذا يعني بأنني لم أكن تعيسا بما فيه الكفاية. وعلى كل حال فهذه كانت فكرة السيد "ميرسو" عني، وكان يرددها باستمرار. كان يقول: "إن المرء ينتهي بأن يعتاد على كل شيء، حتى وإن لم يسترسل في العادة إلى هذا الحد!" ولم أكن أعرف أي حد كان يعني؟ وهذا كان يعذبني من جهة، ويجعلني أفقد توازني من جهة أخرى. لكنني انتهيت بأن أصبحت مثل جاري السيد "سامسا": جديا وحزينا ومتصلب الملامح أكثر من اللازم، حتى عندما أحاول أن أبتسم؛ بل إنني تفوقت عليه في هذه النقطة عندما أدركت بأنني نسيت كيف أبتسم!

انتبهت إلى أنه لم يكن هناك من يتجول منفردا بين الممرات أحد سواي؛ فجميعهم كانوا مثنى وجماعات، وتذكرت ما قاله "جون واتربوري"[3] عن المغاربة، وبأن الواحد منهم لا يستطيع حتى أن يتسوق بمفرده! طيب، ها أنذا يا سيد "واتربوري" أشكل الاستثناء وأتسوق وحدي، فهل لديك اعتراض؟

لكن بغض النظر عن هذا "الاستثناء" الذي كنت أعزي النفس به (مثلما كان يعزي به آخرون أنفسهم في السياسة)، فإن مثل هذه المواقف كانت تشعرني دائما بأنني زائد عن اللزوم، دخيل، طفيلي في عالم لا أنتمي إليه... وككل طفيلي، دخيل، زائد عن اللزوم، فإنه ينبغي اقتلاعه من جذوره، أو بكلمة: ينبغي قتله!

---

[3] – صاحب الكتاب الشهير: "أمير المؤمنين – الملكية والنخبة السياسية المغربية".

كنت أرى بأن مصيري قد تقرر – بشكل فظيع – في دوائر أخرى بعيدة عني، ولم يكن لها أن تأخذ رأيي رغم أن الأمر كان يعنيني! وأنا لم أستطع أن أستوعب الأمر، وقد جاهدت طويلا لفهمه دون جدوى؛ لأن هذا القدر من الفظاعة كان يشعرني بالاشمئزاز والعجز والعدم... وأمام المرايا الفظيعة للعدم التي تجعله يبدو دائما مقعرا ويوحي بالسقوط: هل نستطيع التحكم في الفراغ، نحن الذين لا نستطيع حتى التحكم في دقات قلوبنا؟

عندما نظرت إلى المرآة وحاولت الابتسام، مرة أخيرة، لمع في عيني شيء ما، يشبه الدموع، وارتجفت شفتي السفلى الثخينة، ورأيت أنه من العبث أن أشرح للشيطان، الذي أطل علي من المرآة، محاضرة عن الأخلاق.

انتبهت إلى أنني كنت أدفع العربة أمامي ولم أضع فيها شيئا بعد؛ أما الآخرون من حولي فكانوا يكدسون البضائع والسلع، كما لو أنها ستنفد من السوق، أو كما لو أنهم يستعدون لمواجهة مجاعة مزمنة... ولم أر أغبياء يقبلون على "المواد المسرطنة" بكل هذه اللهفة، والسرور، مثل هؤلاء؟

أما أنا فإنني اشتريت الحد الضروري الأدني بسرعة، ووضعته في العربة التي سقتها أمامي، فبدت بضاعتي بئيسة مثلي، ولم أكن متأكدا من أن هذا الذي اشتريته ليس فيه مواد مسرطنة فعلا؟! حتى إنه قدحت في الذهن فكرة بأن هذه السلع التي اشتريتها، رغم قلتها، قد تكون أكثرها احتواءً للمواد المسرطنة؟!

بعد أن أفرغت محتويات العربة في حقيبة السيارة وأردت إعادتها إلى مكانها الأول الذي أحضرتها منه، سبقني أحد المهاجرين الأفارقة إلى ذلك. كانوا كثيرين هنا: فتيانا وشبابا، وفتيات وشابات (بعضهن كن يحملن أطفالهن الرضع على ظهورهن وبعضهن الآخر كنّ لم يضعن حملهن بعد؛ ولا شك أن الحمل هنا يحيل على الليالي الصقيعية الطويلة في غابات وجدة الملوثة، حيث احتكاك الأجساد ببعضها قد يكون المصدر الوحيد لبعض الدفء والخلاص)؛ ولا شك، أيضا، أن هنا اجتمعت جنسيات عديدة ألغت جميع الحدود بينها، وجميعها تحلم بموسم جديد للهجرة نحو الشمال، حيث الفردوس المفقود المشتهى... ترى هل هو ما يزال كما وصفه السيد "مصطفى سعيد"[4] في رحلته الأولى الشهيرة؟

---

[4] – بطل رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح.

نظرت في عيني الأفريقي الذي سحب العربة من يدي بأدب شديد، وفي جزء من ثانية قرأت كل مسير الرحلة الطويلة القاسية والمريرة التي مر بها للوصول إلى هنا، وهو يدرك بأنه ما يزال عالقا في منتصف الطريق. وعندما أمعنت النظر لمع في عينيه شيء ما، يشبه الدموع، وارتجفت شفته الثخينة السفلى، واكتفى بالصمت، واكتفيت بذلك أيضا...

رأيت أنه من العبث أن يشرح لي محاضرة عن الأخلاق؛ فوضعت قطعة نقدية في يده، ثم غادرت "كوكب القردة".

مباشرة بعد أن صعدت السيارة تركز بصري على محفظة العمل التي ترافقني حيثما حللت أو ارتحلت، فنسيت كل شيء مؤقتا، وعاودتني اللازمة اللعينة التي تأبى أن تغادرني:

ماذا ستكتب؟

ماذا ستكتب؟

شاردا؛ ألاحق أفكاري المتمردة كمن يلاحق بعوضة بمدفع هاون!

*** ***

الفصل الرابع:

الكلب

دخلت عاصمة التهريب/بني درار[5]؛ المدينة التي تعكس ملامح الحرب الباردة، غير المعلنة، بين الإخوة الأعداء/المغرب ≠ الجزائر؛ الحرب الباردة التي نبذها العالم كله ما عدا هنا، ترتخي حينا وتشتد أحيانا!

ملأت خزان الوقود على عجل وغادرتها، كأني أفر من حرب فعلا...

كان الوقت قد جاوز العصر بقليل، تذكرت بأني لم أضع شيئا في بطني منذ الصباح، والواقع أنه لم تكن لدي رغبة حقيقية بالطعام، ورغم ذلك أدخلت يدي في كيس – كنت قد اشتريته من "كوكب القردة" ووضعته بجانبي – أبحث عن شيء، أي شيء، أملأ به معدتي حتى لو كان كرة من البلاستيك. لذلك فالرغبة التي كانت ملحة، ربما، كانت لاستهلاك الوقت أكثر منها رغبة في الطعام، خاصة وأن الشطيرة التي غرزت فيها أسناني تركت مذاقا بطعم الصدأ في فمي!

كان عداد السرعة في حدود 90 كلم في الساعة عندما خرج كلب ضال مسرعا ليعبر الطريق، مباشرة بعد أن تجاوزت عاصمة التهريب بقليل. داست قدمي اليمنى على الفرامل بقوة؛ أفلتُّ الشطيرة المحشوة من يدي وحاولت إدارة عجلة القيادة حتى أتفاداه، لكن دون جدوى... سمعت الارتطام القوي، ورأيت الجثة يلقى بها إلى الجانب الأيمن من الطريق!

توقفت بعدها بأمتار عديدة؛ ترجلت من السيارة وعدت أدراجي نحو الكلب الممدد على قارعة الطريق؛ بعض الأنفاس كانت ما تزال تصعد وتهبط ببطء شديد، دماء تلطخ الفراء الذهبي المغبر، وأنين مكتوم لا يكاد يبين...

"لن ينجو من ضربة كهذه بالتأكيد!" (قلت في نفسي وأنا أقاوم الشعور بالغثيان)، ثم سحبته إلى جانب الطريق، عند جذع شجرة توت قديمة، وتركته هناك؛ تمنيت فقط ألا يطول عذابه؛ تمنيت أيضا لو كان عندي مسدس، لأطلق عليه رصاصة الرحمة، لكن كل ما كان معي، في السيارة، سكين قديم غير مشحوذ جيدا: هل يجوز ذبح كلب؟ وبسكين مثلوم؟ تساءلت؛ ثم تمنيت أخيرا لو أن رئيستي في العمل، أو صديقتي السابقة، أو أي سياسي آخر... أو قواد... كان يرقد هنا مكانه!

---

[5]– بني درار مدينة حدودية صغيرة إلى الشمال من مدينة وجدة تبعد عنها بحوالي عشرين كلم.

عدت إلى السيارة وتفحصتها جيدا، وجدت أنها لم تصب بكبير أذى، فقط بعض الخدوش أسفل المصابيح الأمامية؛ ربما لم أصب رأس الكلب مباشرة، لأنني أعلم بأن الرأس أصلب ما فيه، وإصابته قد تنتج عنها أضرار كبيرة في موقف كهذا...

"موقف كهذا: ما أكثر ما تكررت معي هذه الجملة هذا اليوم!" قلت وأنا آخذ مكاني عند عجلة القيادة من جديد. انتابني حزن شديد على الكلب الذي صدمته، وشيئا فشيئا بدأ هذا الإحساس يتحول إلى شعور بالذنب. نظرت إلى الشطيرة المحشوة، التي أفلتّها من يدي قبل حادثة الاصطدام، وكانت ما تزال على الكرسي المجاور، وبعض الفتات تتناثر هنا وهناك، داخل أرجاء السيارة وعلى أرضيتها، ثم أدرت المحرك وواصلت المسير، وقد فقدت شهيتي للطعام!

لاحقا سيلازمني هذا الإحساس أياما...

بعد ذلك بكيلومترات قليلة بدأ المطر يهطل خفيفا في البداية، ثم زخات عنيفة بعد ذلك. وكان هناك دخان سميك وسخام ورائحة بغيظة كرائحة عجلات السيارات المحروقة، فأغلقت النوافذ. للحظات رحت أتابع الحركة البندولية لماسحتي الزجاج قبل أن أعود للتركيز على منعرجات "الكَربوز" التي بدأت تتلوى أمام ناظري كأنني أمتطي أفعوانية عملاقة... وعند المنعرج الأخير توقف المطر فجأة، تماما مثلما ابتدأ، لكنني لم أتوقف عن التفكير في حادثة الارتطام، وحشرجة الكلب الخشنة...

لم أستطع أن أبعد منظر الكلب الممدد على الطريق عن عيني. لا شك أن فراءه الذهبي بات مبللا الآن؟ (تساءلت ثم سارعت إلى الإجابة مستنكرا):

- "مبللا! ربما تكون الكلمة خفيفة على موقف يعجن فيه المطرُ الدم بالتراب؟"

جاهدت طويلا لترويض هذه الذاكرة العنيدة وأنا أتساءل: هل يمكن ترويض ما لا يمكن ترويضه؟ قبل أن أختتم مهرجان أسئلتي بسؤال: هل أنصرف عن موضوعي الأول وأجعل من الكلب "القتيل" بطلا لقصة جديدة، بدل التي أرهقتني طوال المدة الماضية؟

هكذا حل هذا السؤال محل اللازمة الأولى/ماذا ستكتب؟ ولازمني فيما تبقى من الرحلة، إلى حين!

لكن:

- "ماذا ستكتب؟"

- "ماذا ستكتب؟"

عن الكلب؛ أو عن القتيل؛ أو عن الكلب القتيل...

*** ***

الفصل الخامس:

لعنة "كِيس"[6]

[6]– كيس نهر صغير جدا يشكل الحدود السياسية بين المغرب والجزائر في أقصى الشمال.

هل أستطيع أن أفصل باقي الرحلة عن كل هذا السخف الذي قد مضى؟

هل "أحفير" و"لمريس"[7] وكل سهل، وتل، ورابية... وكل ما تبقى من كل نقطة/لحظة مما هو آت؛ فيه حقا ما يميزه عن أي نقطة/لحظة من هذا الذي قد مضى؟

فيما يخصني، لا أريد أن أغرق في التفاصيل، المملة والسخيفة، من دون علّة، أو على الأقل هذا ما أعتقده. فقد نقول القليل أحيانا، لكن هذا القليل يكفي...

طيب، وماذا يمكنني أن أقدم تبريرا لكل ما ذكرته من قبل؟

عن وجدة الباردة المحايدة ومداراتها الكئيبة؛ عن والدتي بالتبني، والمشرحة التي تشبه المجزرة، والأطباء، والمقبرة، وكوكب القردة...؛ عن الخنثى الذي استوقفني، وصدر رئيسة التحرير المتصلب النافر كالخنجر، وصديقتي الخائنة السابقة؛ عن الكلب الذي قتلته، والقمر الذي نسي نفسه فظل قابعا في الفضاء رغم أن الوقت كان قد قارب الظهر...

ليس بين يدي إلا تبرير واحد يتيم، مثلي – ليس لأن أمي توفيت قبل أيام، بل لأنها وجدتني يتيما منذ البداية – هو أن كل ما سبق قد ترك أثره فيّ أنا بالذات، وقطعا لن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكل من سيعبر من هنا، في طريقه إلى الحافة... حافته هو!

قد تكون وجدة، بالنسبة لآخرين غيري، أشهى من تفاحة؛ وقد تكون المواد المسرطنة في "كوكب القردة" أشهى الوجبات بالنسبة لبعض الكائنات؛ وقد يكون الخنثى/الزعيم السياسي أشهى من الأنثى لدى كائنات غيرها... وقد تكون هناك تبريرات أخرى تجعل من كل نقطة/لحظة مضت تبدو بشكل مغاير، أو حتى مضاد، لما تم بسطه هنا!

ما وقع وقع بالنسبة لي، وقتها، فكان مهما بالنسبة لأناي... اللغة السحرية التي تركت أثرها على صفحتي كالوشم المحفور في الجسد والذاكرة: إنه جسدي، وذاكرتي، ووشمي... أنا الذي عانيت منه مع كل غرزة إبرة، وأنا وحدي القادر على تأويله رغم أنهم كُثْر أولئك القادرون على قراءته.

---

[7]– أحفير مدينة مغربية صغيرة توجد على الشريط الحدودي مع الجزائر، في أقصى الشمال الشرقي للمغرب؛ وهي من بناء الجنرال ليوطي سنة 1908 وكانت تسمى في الفترة الاستعمارية ب: "Martinprey Du Kiss"؛ أما "لمريس" فهي قرية صغيرة إلى الشمال منها.

كانت حادثة قتل الكلب، وسحبه تحت شجرة توت قديمة، أهم من قتل "زعيم الجماهيرية العظمى"، وسحبه تحت المجارير، قبل شهر، لينسحب من اللعبة الركحية كوميدي آخر؛ وهي بالتأكيد أهم من قتل أي "كلب"، آخر، وسحبه، تحت أي مكان، آخر، باتجاه الجنة أو النار...

وكان القمر البليد الذي يصارع ضوء الشمس الكاسح – دون استحياء – فيختبئ خلف الغيوم التي تداخلت ألوانها الرمادية والبنفسجية والبرتقالية... أهم من الأحزاب التي كانت تتصارع طوال الأيام الماضية – دون استحياء أيضا – مختفية خلف "لُوَيْنات" لا تقدم أو تؤخر من الأمر شيئا...

ليس ضروريا أن تشكل العلامات الفارقة بالنسبة لأناي، علامات فارقة بالنسبة للآخرين بالضرورة؛ ولأن الأمور هي في الواقع أشد تعقيدا مما تبدو عليه، فإنه يصعب رؤيتها بعيون الآخرين، كما يرونها حقا.. وهذه معضلة تشبه عمى الألوان!

لذلك فما كنت أراه بعد أن تجاوزت "أحفير" و"لمريس" وكل نقطة/لحظة أخرى – وقد لا يراها الآخرون كذلك – هي أمور تشابهت على مد البصر: نفس التلال العجفاء، والسهول الضيقة، والوجوه الكالحة... حتى إني رأيت فلاحَيْن بائسين، على ضفتي النهر، يابسين كزرجونَيْ دالية، فكانا كأنهما شخص واحد انعكس ظله على صفحة الماء ثم ارتد إلى الضفة الأخرى؛ فلم أستطع أن أجد تفسيرا "مقنعا" لماذا ضفة "كيس" اليسرى هي للمغرب وضفته اليمنى هي من حظ الجزائر؟

فكل ما كان خلف هذه الضفة، أو تلك، متشابه على المستويين الطبيعي والبشري! لم يستطع عقلي المهزوم أن يقتنع، وأنا أعبر بين الأجراف العظيمة[8] المتقابلة، لماذا يحمل هذا الجرف جنسية مغربية، والآخر له "جواز سفر" جزائري؟ ولا كيف أن جماعتين من الناس وقفتا على مرمى حجر من بعضهما، وليس بينهما غير "كيس" (الذي لا يتجاوز عرضه بضعة أمتار، والمثقل باللعنات إلى أبعد حد) تلوّحان لبعضهما في شوق ولهفة، ولا تستطيع إحداهما عبور الأمتار القليلة ومعانقة الأخرى، لإطفاء هذا الشوق!؟

كنت أحث السير باتجاه الشمال دائما، وأنا أرى من نافذتي، عند أضيق نقطة بين الضفتين، عددا من السيارات المتوقفة، وسيارات أخرى كانت تستعد للتوقف، ولم يكن أي من الحاضرين هنا مستعدا للمغادرة بعد؛ ليس قبل مغيب الشمس على الأقل، حيث يحول الليل دون استمرار التواصل المرئي؛ فوحده الظلام قادر على تبديد انعكاس المشاعر، كما لو أنه مرآة سوداء... هذا ما قدرته في توقعي على الأقل؛ ورحت أتساءل: نحن في زمن العولمة

---

[8] – وهي المنطقة المعروفة عند سكان المنطقة بـ: "بين لجراف".

والتواصل الفوري بالصوت والصورة، فلماذا يلح هؤلاء الناس على ضرب مواعيد للقاء هنا؟ هل تطفئ الرؤية الحية بعض الشوق المتأجج إلى المعانقة والاحتكاك الجلدي؟

تباطأت أنفاسي وأنا أعبر "بين لجراف" المكلومة. ألقيت نظرة خاطفة على المرآة العاكسة داخل السيارة فأطل علي وجه لا يشبهني، كنت أبدو مجرد شبح لشخص أعرفه، أو أحسب أني كنت أعرفه. تضخمت رئتاي وضغطتا على الحجاب الحاجز وانقبض قلبي بداخلي وشعرت بأنه تضاءل وأصبح بحجم حبة بندق تستعد لذبحة صدرية.

وكمثل الأسئلة الكبيرة التي يطرحها الأطفال، عادة، وتربك الكبار، لم أعد أتساءل: ماذا ستكتب؟ ونسيت الكلب الذي صدمته قبل حين، ورحت أبحث كيف يمكنني أن أجد جوابا لسؤال جديد بدأ في التشكل: سؤال عن هذا الذي يجري هنا/في "بين لجراف"، وتحطم المشاعر على صفحاتها الصخرية الجرداء؟

بَعُد العهد بي قاذفا بذاكرتي نحو مجاهل التاريخ، إلى ساحة معركة "إيسلي"[9] ومعاهدة "للا مغنية"؛ و كيف أن الأولى كانت سببا في الثانية، وكيف أن سبب الأولى كان العلاقة التضامنية القائمة وقتئذ بين ضفتي "كيس" بكل مكوناتها الطبيعية والبشرية؟

صِرت أعلم بعد هذا الذي رأيت أن المسافات لا تقاس دائما بوحدات القياس المعروفة: بالميل، أو الفرسخ، أو المتر... فهناك مسافات تقاس بما اسودّت به القلوب، ومسافات أُخر تقاس بحجم الرغبة في البكاء حد الاختناق، ومسافات ثالثة اتخذت لها من الصلف والغطرسة مقياسا... فلكل حالة وسيلة قياسها التي تناسبها؛ ولذلك فالمسافة التي تؤلف "سرير" الوادي هنا لا ينبغي قياسها بوحدات الطول أو العرض... فالحدود تعلن هنا بأنها مقفلة، باردة كجثة ميتة، وهذا في رأيي يستحق أن نقف له دقيقة صمت...

عندما انعطفت السيارة عند أحد المنعرجات الحادة، خُيّل إلي أن حياتي كلها تنثني على ذاتها في منعرج خطير، وراودني شعور فظيع بأنني أتجه نحو مصيدة... ضغطت على الدواسة لأسرع أكثر لكني شعرت بوهن يسري في ساقي، وخدر يمتد من ركبتي حتى مشط قدمي، وعوض أن أسرع أكثر تباطأت أكثر؛ واعتراني شعور بالمهانة والضعف، وبدأت أكلم نفسي بعبارات لم أفهمها... بحثت عن صوتي في عدة مناسبات فأطل عليّ

9– معركة "إيسلي" تنسب إلى واد يحمل الاسم نفسه (إيسلي) لأنها وقعت على ضفافه سنة 1844 بين المغرب وفرنسا التي كانت قد احتلت الجزائر منذ سنة 1830، واتخذت من مساعدة المغرب لمقاومة الأمير عبد القادر ذريعة لإعلان الحرب عليه. لم تستمر المعركة عمليا إلا بضع ساعات انتهت بهزيمة المغرب حيث أرغم على توقيع معاهدة "للا مغنية" (سنة 1845) ورضخ لشروطها الثقيلة، ومن أهمها فقدان السيطرة على حدوده الشرقية، والتخلي عن دعم المقاومة الجزائرية.

متقطعا أجشا أقرب إلى الهذيان، فأشفقت على نفسي، وانهار بعضي وبدأ يتداعى نحو الهاوية.

لست مسؤولا عن وفاة والدتي، ولا عن فسخ خطبتي، ولا عن قتل "الكلب" الخطأ؛ كما أني لست مسؤولا عن العالقين هنا في "بين لجراف"، أو عن أولئك الذين يتاجرون بقضايا الناس البئيسة...! فلماذا يمزقني الإحساس بالذنب عن أشياء لم أكن سببا فيها؟

إن مجرد التفكير في مثل هذه الأفكار الكئيبة، أو المروعة، يؤلمني... بل إنه يقتلني...

أعلم بأن مزاجي لم يكن جيدا منذ البداية، لكنني ألاحظ بأنه يزداد سوءا كلما تقدمت في المسير؛ وهذه الرائحة الغريبة التي تشبه رائحة الموت، والتي كانت تتسرب إلى داخل السيارة دون أن أعلم من أين كانت تأتي، ولا كيف تسربت إلى الداخل (لأني كنت قد أغلقت جميع النوافذ) كانت سيئة بما يكفي لتجعلني أغوص أكثر نحو مشاعر خانقة. وعندما فتحت النافذة المجاورة لتخرج الرائحة فاجأتني بأن دخلت أكثر، فسارعت إلى إغلاقها ثانية، وأحسست بأن الأوكسجين من حولي قد نفد، وتضاعف الشعور بالاختناق لدي.

كانت السيارة تغذّ الجراح وهي تنهش الأرض نهشا؛ لكن عندما ابتعدت عن الجماعة الصغيرة في "بين لجراف"، خيل إليّ أن دهرا كاملا قد انقضى، وبدأت أنسى المشاعر الغريبة التي راودتني قبل لحظات: إنها جماعة صغيرة حزينة من دون شك، تقاوم شوقها لإطفائه قبل أن يحل الظلام؛ أما أنا فعليّ أن أعوض عن ساعات النوم الكثيرة التي فاتتني وراكمتها ليال طوال؛ ولذلك بدأت بالتثاؤب، وفتحت فمي فبدا أكبر قليلا من فم فرس النهر، بل أكبر قليلا حتى من فم السيد "ميرسو" نفسه؛ انتابني شعور ساذج أقرب إلى الغباء وأنا أعاود التثاؤب مرات عديدة أخرى، ودمعتْ عيناي... ولم أستطع أن أحدد بالضبط لأي سبب دمعتا!؟

قلت في نفسي والشعور بالغباء يلازمني: ما زلت غير مستعد، بعد، لأن أصاب بالجنون، لكن التفكير بمثل هذه الطريقة قد يكون مقدمة له!

ثم أضفت، دون حتى أن أعلم العلاقة القائمة بين العبارتين: هناك كثير من "الكلاب" التي ينبغي قتلها؛ وأنا قتلت الكلب الخطأ...

الفصل السادس:

مدينة الأشباح

استقبلتني مدينة السعيدية، أو استقبلتها، وأنا أردد لازمتي الجديدة، قبل المغيب بقليل. أدخلها وأنا أحمل عشرات القصاصات الورقية والصور الفوتغرافية (عن حادثة القتل/الانتحار التي أحقق فيها)، وحقيبة صغيرة، وقلبا محطما، وَوِزْرَ كلب قتيل...

على جانبي مدخل المدينة كان هناك عدد من الشبان يلوّحون بالمفاتيح في أيديهم، في إشارة إلى وجود منازل للكراء؛ وكنت أعلم، كما يعلم جميع من يسكن المنطقة، بأن موسم الصيف، حيث تضيق السعيدية بالمصطافين، قد ولى، وهي الآن أشبه بمدينة أشباح خالية كئيبة.

توقفت عند أحدهم وسلمت، ثم سألته الأسئلة البليدة المبتذلة، التي تكون مقدمة في مواقف كهذه، عن الحال والصحة والجو العام بعد انصرام موسم الاصطياف... أسئلة كنت أعلم لؤمها مسبقا، تماما كما أعلم طبيعة الأجوبة التي تزاوج بين المكر والحقيقة التي سيرد بها؛ فمعظم هؤلاء الأشخاص يكونون مجرد حراس للمنازل والفيلات التي يتركها أصحابها بعد قضاء عطلتهم الصيفية. وأي دخل يأتيهم في مثل هذا الوقت هو ربح إضافي صاف لم يكن بالحسبان؛ لكنهم يناورون جيدا لإيهامك بالعكس لتحقيق أكبر فائدة.

- عندي ثلاث منازل... (قال) لكني لم أتركه يكمل حديثه؛ قاطعته:
- أبحث عن منزل قبالة الشاطئ مباشرة...

قاطعني الماكر: – موجود.. لكن ليس في السعيدية بل في الطريق إلى "راس الما"...

- لا يهم (قلت) لكن شريطة ألا يكون في "فاديسا"!
- اطمئن، ليس "فاديسا"...
- والسعر؟
- لن نختلف... (ثم تابع) المهم أن يعجبك أولا...

قلت ردا على مكره بمكر: – سيعجبني... إذا كان مقابلا للشاطئ فسيعجبني... ثم إني لا يهمني عدد الغرف، فأنا وحدي كما ترى (ثم استدركت تحسبا لمواقف قد لا تكون في الحسبان...): ربما يلتحق بي بعض الأصدقاء، لكن ليس قبل يومين أو ثلاثة على الأقل، وحينها قد نغيره إذا ضاق بنا...

- به ثلاثة غرف ومطبخ وحمام بالماء الساخن...

قاطعته: – الماء ساخن فعلا أم... ؟

قاطعني في خبث كأنما يناور في مباراة شطرنج بمهارة: – إذا لم يكن ساخنا فلا تدفع شيئا...

- اصعد (قلت، وفتحت باب السيارة)...

نظر إلي ببلاهة ففهمت مراده:

- اصعد (قلت ثانية) سوف أعيدك إلى هنا سواء أعجبني البيت أم لا!

عبرنا شوارع المدينة القديمة شبه الخالية... ووصلنا "فاديسا"؛ كانت مدينة أشباح بامتياز: آلاف الشقق والعمارات تعوي فيها الرياح في هذا المساء البارد. وأنوار الشوارع البيضاء، المائلة إلى البنفسجي، كانت قد أسرجت منذ مدة...

ثم قل عدد أعمدة الإنارة بعد ذلك، بالتدريج...

- "نحن ذاهبون إلى راس الما؟!" (هممت أن أقول لصاحبي؛ لكنني توقفت...)

(...)

(...)

أخيرا وصلنا إلى المكان المقصود:

- انعطف إلى اليمين، من هنا... (قال صاحبي)

سرنا في طريق غير معبدة برهة قبل أن يطلب مني التوقف...

- هذا هو المنزل...

أوقفت المحرك؛ ترجلت عن السيارة وأول شيء فعلته أني استنشقت الهواء المشبع بالرطوبة ورائحة الملح... التفتّ إلى الوراء لأرى المكان الذي انعطفنا منه إلى هنا حيث مصباح عمومي ينتصب شاردا عند الزاوية، لا يكاد ضوءه يصل إلى هنا!

الباقي؛ كل الباقي: أجراف سحيقة موحشة ذات اليمين وذات الشمال؛ والبيت عبارة عن فيلا صغيرة مستلقية بجوار حافة صخرية حادة؛ والليل قد ضاعف من وحشة المكان ورهبته... وقبالة ذلك كله منظر كحلي مهيب تصدر عنه أصوات مثل الرعود؛ إنها أمواج البحر المتلاطمة، المتكسرة على الشاطئ... وأهم من هذا كله رائحة الملح التي تشبع بها الهواء، وتشبعت بها رئتاي، وكم أعشقها!

أخرج الشاب هاتفه المحمول وأضاء مصباحه، وبمساعدة ضوئه الخافت بحث عن مفتاح الباب الخارجي وفتحه... سرنا بضع خطوات قليلة في حديقة لم أميزها جيدا؛ ثم فتح الباب الرئيس للمنزل وأنار المصباح...

قمنا بجولة سريعة بين أركانه؛ ولم نختلف حول السعر...

دفعت له أجرة أسبوع مسبقا، ومعها بطاقة التعريف الخاصة بي حتى يطمئن. تفحصها، أو ادعى بأنه يتفحصها، للحظات، ثم أرجعها إلي. وضعتها في مكانها داخل حافظة النقود، ودون أن أنظر إليه قلت: موعدنا بعد أسبوع إذن، إما لتمديد المدة أو سأترك لك مفتاح البيت عند هذه الزاوية من النافذة، وأشرت إلى إحدى الزوايا فعلا، فهز رأسه موافقا، ولم يبد أنه يفكر في غير المال الذي هبط عليه من السماء فجأة. وعندما أردت إعادته إلى المكان الذي أحضرته منه طلب مني بدل ذلك أن أقله إلى "راس الما"...

تفاجأت لطلبه، لكن سرّني ذلك في نفس الآن، فالمسافة من هنا إلى "راس الما" أقرب بكثير منها إلى المكان الذي أحضرته منه؛ وأنا كنت متعبا جدا، وصورة الكلب اللعينة لم تشأ مفارقتي...

نصف ساعة بعد ذلك كنت مستلقيا في فراشي. حاولت النوم لكن صوت الثلاجة القزمة في المطبخ كان يعلو كمحرك شاحنة قديمة، كان صوتها أكبر من حجمها بكثير وكان مزعجا فعلا. قمت من مكاني بتثاقل وتوجهت نحو باب المطبخ وأغلقته حتى أكتم الصوت الذي ضغط على أعصابي، ثم عدت إلى الفراش. لكن الصوت لم يهدأ إلا قليلا، وكنت كلما حاولت التركيز أكثر لأصرف تفكيري عنه إلا وشغلني أكثر، بحيث بدا أنه يعلو على كل ما سواه.

حاولت أن أصرف نظري بمتابعة بقعة سوداء على السقف فرحت أراقبها وكأني أنتظر منها أن تتحرك من مكانها، أو أن تعطيني دروسا في التأمل، أو أتلهى بها حتى تصرف عني صوت "الآلة الموسيقية" النشاز المنبعث من المطبخ؛ لكن ما إن تخلصت منها حتى عادت صورة الكلب القتيل إلى ذاكرتي بقوة، فطغت على صوت الثلاجة والبقعة السوداء العالقة بالسقف...

أعرف بأني كنت محتاجا إلى قليل من الحكمة حينها، وقد سبق لي أن قرأت "حكمة الغرب"[10] كلها فعلا من قبل، لكن هل تكفي قراءة الحكمة، أو عنها، حتى يصبح المرء حكيما؟

جاهدت طويلا لأعبر حالة الأرق الفظيعة التي اجتاحتني، لكنني لم أستطع أن أبعد منظر الكلب الممدد على الطريق عن مخيلتي... أنا الذي عادة أذهب لأنام وأنا أفكر في نيتشه، وأستيقظ وأنا أفكر في أبي حيان التوحيدي، وفيما بينهما أفكر في كل ما أحسبه عظيما حولي، إلا أن يكون كلبا؛ هل يمكنني، بل كيف يمكنني إبعاد صورة الكلب الممدد عن ذاكرتي؟ أتكون "لعنته" قد أصابتني؟ بل هل هناك أصلا شيء اسمه "لعنة الكلاب" قياسا على "لعنة الفراعنة"، أو "متلازمة الكلب" قياسا على متلازمات الأمراض النفسية؟

فقد سمعت يوما على لسان قاتل مأجور، وفيما يشبه جلد الذات، قوله: "عندما تقتل أحدا فإن شيئا منه ينتقل إليك!" وأنا الآن أتساءل هل يصدق ذلك حتى على الكلاب؟ لأني أشعر بأن بعضا من الكلب الذي قتلته انتقل إلي فأصابني باللعنة فعلا، وهي الآن تضاعف اضطرابات النوم لدي!

*** ***

---

[10] – إشارة إلى كتاب "حكمة الغرب" لبرتراند راسل.

الفصل السابع:

الاعتكاف جوار الحافة

كان الوقت باكرا جدا عندما استيقظت صباح اليوم الموالي؛ ولم أكن أذكر متى استسلمت للنوم ليلة أمس!

وضعت كرسيا طويلا، من النوع الذي يساعد على الاستلقاء والاسترخاء، قبالة الشاطئ؛ ثم توضّعت عليه وبدأت أتأمل ما غيّبه الليل عن ناظري؛ وبالذات البحر الممتد أمامي، وأمواجه تتلاطم في صخب شديد... لكن صورة الكلب الممدد على قارعة الطريق لم تشأ أن تفارقني: لماذا لا يكون بطل قصتي الجديدة؟ (تساءلت بجد)

بدأت كتابة قصة عن الكلب القتيل من نهايتها، أي من لحظة الارتطام؛ ثم توقفت حين تذكرت رئيسة التحرير المتربصة؛ تساءلت (بجد مرة أخرى): هل ستقبل بها بديلا عن واقعة الانتحار، أو الجريمة الكاملة، التي كلفتني بالتحقيق فيها؟ وخلف السؤال تراءت صورة زميلتي في العمل ساخرة أو شامتة، أو ساخرة وشامتة...

- "أما زلت رومانسيا حالما تبحث عن غراميات الشبابيك؟" (ستقول! وسأبدو سخيفا وقتها، وسأشعر كما لو أني شخص بليد يعترف بذنبه.)

سأقول، وأنا أنظر إلى حذائي كما هي عادتي في مثل هذه المواقف: "ليس هذا ما قصدت..."

- "وماذا قصدت أيها الرقيق الناعم الذي يشبه الملابس الداخلية للسيدات؟" ستواصل هجومها المستفز؛ وسأواصل اعتذاري، وأنا لا أزال أتحدث إلى حذائي، باحثا عن جواب مقنع وقد أعوزتني الكلمات: "أنا قتلت الكلب؛ وأنا أدين له باعتذار!"

وفيما بين هجومها الكاسح ودفاعاتي المتهالكة ستبقى الأسئلة الكبيرة جاثمة على صدري كالرحى، ترفض الانزياح، وتنقر في دماغي كالغراب الذي يُهيّجه القليل من رائحة جيفة قذرة... وسأكره نفسي، تماما كما أكرهها الآن!

في النهاية حسمت أمري وقلت: سأكتب قصة عن الكلب الذي صدمته، مهما سيحصل! وبعد: أليس من حقه، بل من أبسط حقوقه عليّ، أن أكتب عنه تخليدا لذكراه، وتكفيرا عن جريمتي؟ ثم ما الفرق في النهاية بينه وبين الرجل الذي انتحر أو قتل؟ ألا نقول عادة عن المنتحر أو القتيل بأنه "مات ميتة كلب"!

قلت أيضا فلتكن القصة على طريقة الفلاش باك؛ وكذلك فعلت: وصفت الحادثة كما وقعت تماما؛ ثم توقفت، مضطرا هذه المرة، لأجد نفسي أعود من جديد للازمة الأولى اللعينة:

- ثم ماذا ستكتب؟
- ماذا ستكتب أيها الفاشل؟

ولأول مرة أنتبه إلى أنني أحكم على نفسي بالفشل، وأضيفه إلى لازمتي اللعينة...

- أجل (تابعت مؤكدا) كنت دائما فاشلا في كل شيء، حتى في مضاجعة عاهرة!

وعدت أتأمل ذاك الذي أسرني مذ جئت إلى هنا: أمواج البحر المتلاطمة في السافلة...

دماغي لا يتوقف عن التفكير، ولا أنا كنت أرغب حقا في إيقافه؛ كأنني كنت أستمتع بهذا "العذاب": صعوبة في التذكر، صعوبة في التركيز، صعوبة في ترتيب الأمور... وأحلام يقظة أشبه بدوامة عنيفة تنتابني، لا أستطيع الخروج منها... كأنني في سجن مفتوح!

إنه الهذيان!

هل كنت داخلا إلى كابوس أم خارجا منه؟

*** ***

مر اليوم الثاني؛

مر اليوم الثالث أيضا وأنا لم أكتب شيئا، لا عن المنتحر/القتيل الذي سافرت من أجل إتمام قصته، ولا عن الكلب الذي صدمته (الخطة "ب" المفترض أن تنتشلني من إحباطي)! وكل ما أفلحت فيه، طوال يومين، هو تمديد رجلي على الكرسي الطويل ومراقبة الأمواج المتلاطمة، وملء رئتي برائحة الملح...

معزولا عن العالم الخارجي، وليس هناك إلا السماء والبحر للتواصل مع الله؛ والوحدة تضعف قدرة الفرد على التحكم في أعصابه فلا يصبح قادرا على التحكم في نفسه... الأمر الذي يصبح مصدر قلق. "لكن ليس بالنسبة لي!" قلت، ثم بدأت أكلم نفسي، مرة أخرى: "معظمنا يصارع ليبقى ثابتا متماسكا، بما أن الاتصال مع الآخرين ليس آمنا أبدا، ولهذا فنحن نستمتع بكوننا قساة."

في اليوم الرابع اسيقظت باكرا جدا وكنت أتوقع أن تحدث أشياء كثيرة تخرج قلمي من حالة الاجتفاف التي أصابته، لكن لم يحصل أي شيء غير صداع لازمني طوال ساعات، كأن أحدهم غرز مفك براغي في عيني اليسرى. سارعت إلى علبة الدواء التي لا تفارقني.

لديّ اعتراف، وليبق حديث الليل سرا بيننا: أنا، كجميع المواطنين فيما أعتقد، لا أثق في الصناعة الوطنية – لأن الغش طال كل شيء حتى التجارة في صحة الإنسان – لذلك فقد ابتلعت قُرصيْ مهدئ دفعة واحدة، رغم أنه منصوص في العلبة، وباللون الأحمر العريض، بأنه يجب احترام المقادير؛ وأن هذه المقادير محددة في قرص واحد كل مرة، وأن الفارق الزمني بين الجرعة والأخرى يجب ألا يقل عن ست ساعات! لكنني كنت أعلم بأن كل هذا مجرد هراء! وقد سبق لي في مناسبات عدة أن تناولت قرصا واحدا فلم يزد "شقيقتي" إلا هيجانا، ومنذ مدة طويلة وأنا أتناول الجرعة مضاعفة ولم يحدث لي أي شيء؛ لذا كانت قناعتي بأن صناع الدواء، تماما كصناع السياسة العاهرة، كاذبون! هل لأن صناع الدواء هم أنفسهم صناع السياسة العاهرة؟ ربما؛ لكن كيفما كان الجواب فإن التجربة علمتني ألا أثق في هؤلاء ولا أولئك، وأنا أطمئن إلى تجربتي، لذا تناولت قرصين هذه المرة أيضا؛ وعدت إلى الفراش بعد أن سحبت ستائر الغرفة فعمّ الظلام.

ساعة أو ساعتين... أو ربما ثلاثة! لا أذكر كم لبثت بعد ذلك، أو كم لازمتني "الشقيقة" بالأحرى؟ لكن الصداع خف قبيل الظهر بقليل؛ فأخرجت كرسيي الطويل وعدت أمارس هواية الاسترخاء التي بت أتقنها، وقد وضعت إلى جواري سندويشا خفيفا وإبريق شاي، على مائدة بلاستيكية بيضاء.

بُعيْد العصر نزلت المنحدر الصخري المؤدي إلى الشاطئ، أخطو بحذر شديد فوق درجات غير متقنة الصنع، كأنما صنعت على عجل، تربط أحيانا بين المنعرج والآخر. بدا النزول في حد ذاته مغامرة خطيرة هنا، لكن متعة السير على الشاطئ المهجور كانت تستحق المغامرة فعلا!

رحت أراقب آثار خطواتي التي كنت أرسمها على الرمال المبللة، للحظات قبل أن تمحوها موجة تموت بهدوء على الشاطئ، ثم أرسم أخرى على عجل لتمحوها موجة ثانية، ثم ثالثة، فرابعة... جميعها فضلت الموت انتحارا عند الشاطئ الرملي، الحالم، المهجور...

نزعت حذائي وحملت كل فردة منه بيد، ثم دخلت مياه البحر لأبلل قدميّ قليلا، فأحسست بالرمال المبللة تتراجع تحت أقدامي كأنها تسحبني، باتجاه البحر، فاستغرقت في ذلك؛ لكن موجة مخاتلة انكسرت على الشاطئ فجأة، فأخذتني على غفلة مني وبللتني كلي، فالتصقت ملابسي بجسدي في شكل صليب، كأنني شماس ارتدى بطرشيله استعدادا لإحياء قداس.

خرجت من الماء وبدأت أتسلق الجرف بالتدريج في رحلة عودة مضنية إلى كرسيي الطويل، حيث تهالكت مستلقيا على ظهري أتأمل الشاطئ من جديد.

كانت الشمس قد مالت عن الأصيل حين رحت أتخيّلُني خارجا من البحر وأتسلق الجرف الصخري باتجاهي؛ قبل أن يبعثني من خيالي صياح نورس حلق منفردا، منسابا مع الريح في لعبة يتقنها. أدرت نظري أبعد إلى اليسار فرأيت العشرات، أو ربما المئات من النوارس الأخرى، وكلها تتقن لعبة الانسياب مع الريح.

– "لعلها تفرّ من شيء ما!" أسررت في نفسي...

*** ***

الفصل الثامن:

ليلة العاصفة

في الليل انقلب الجو وزمجر البحر كوحش ضار، وهبت رياح قوية مثل التي نسمع، أو نقرأ، عنها في كتب البحارة ومذكراتهم؛ تلك التي تحطم الصواري، وتمزق الأشرعة، وتعصف بالسفائن بعيدا، وترغم أسرابا من النوارس على الهجرة ولو مؤقتا...

أغلقت جميع النوافذ والأبواب بإحكام، ورغم ذلك ظلت تصطك، وتقرقع، طوال الليل؛ أما الأشجار فكانت تهتز بعنف هيستيري في الخارج، كأنما تجلدها العاصفة لترغمها على الاعتراف بإثم اجترحته...

انقطعت الكهرباء مرتين وهو ما لم يكن في الحسبان؛ توتّرت أعصابي كثيرا، وتسارعت أنفاسي أكثر. أشعلت موقد الغاز، وسخان الحمام، وكل ما يقبل الاشتعال... كي أحصل على بصيص ضوء؛ وقضيت معظم الوقت أبحث في مختلف أرجاء البيت عن شموع أو قناديل، تحسبا لأي طارئ!

"اهدأ!" قلت: "إذا أردت احتراف الصيد فيجدر بك أن تكون صبورا..."

تذكرت بأني أحمل مصباح بطارية في درج القفازات بالسيارة، لحالات الأعطاب الطارئة. خرجت أتخبط في الظلام والعاصفة أتلمس طريق السيارة؛ بعد دقائق عدت إلى البيت مبللا كالكلب الذي صدمته، وأنا أحمل مصباح البطارية، وبمساعدته وجدت في المطبخ فعلا علبة شموع لم تستعمل منها إلا واحدة أو اثنتان، مما أكد لي أن انقطاع التيار الكهربائي شيء مألوف هنا.

أشعلت إحداها ووضعتها على الطاولة، ولما هممت بإشعال واحدة أخرى أحجمْت، تحسبا لانقطاعات أخرى في الكهرباء قد تنقطع معها آخر أنفاسي!

كانت ذبالة الشمعة تتراقص في هدوء كأنما تهيئني لنوم مغناطيسي، وعلى الجدران اتخذت الظلال رسوما تشبه اختبار "رورشاخ" النفسي: "هل أنا في عيادة؟" ساءلت نفسي...

أجبت نفيا ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أنتهي بصدمة، وأعيد طرح السؤال...

"ثلاث مرات! هذا كثير..." قلت، ثم واصلت: "افتح حسابا جاريا إذن!"

لا أعلم لماذا لم أستثمر مشاعري في مجالات أخرى غير الكتابة، كتجارة الأسلحة مثلا...

"إنها مجال مزدهر" (يقولون)؛

"والعالم يحتفي بالقتل في الحروب كما في المعلقات الجاهلية..." (يقولون أيضا)

أما أنا فلا أعلم أي نوع من الرجال أنا؟؟؟

"أنت مسخ!" قلت في نفسي...

تحب السَّلَطة باردة، وسط الأكل، مع كثير من المايونيز، وحقنة شرجية!

تحب أيضا الانتقال إلى الكلام العابر هكذا: أحوال الطقس؛ ارتياد المدرسة؛ معاشرة النساء؛ القفا الغليظة لرئيس الحكومة...

"ألم أقل بأنك مسخ؟"

مسخ! يبدو كما لو أن هذه الكلمة اخترعت من أجلك... (تابعت حديثي مع نفسي)

مسخ ضعيف وسريع العطب، وكل ما هنا قد يجرحك؛ والعالم الذي تركته خلفك يضغط عليك، يريد أن يوصلك إلى حافة الجنون. يريدك أن تصبح طيعا ككرة من الهلام؛ لكن ما يشغل بالك الآن هو كيف تتواصل مع العالم الذي هجرته، أو هجرك؟

بدوت بئيسا وأنت تخاطب طلاسم "رورشاخ" التي تشبه الظلال، أحيانا؛ وأحيانا أخرى تخاطب ثقبا في الباب أو شقا في الجدار...

"أنت لست بحاجة إلى وجود شخص آخر..." قلت – وأنا أوقد شمعة ثانية بدل التي ذرفت آخر دموعها – وكنت أعلم بألا سبيل إلى إقناع نفسي بذلك... لأن الشعور بالوحدة، في موقف مثل هذا، هو الشعور بالعدم، كالسجن الانفرادي أو العزل؛ "إنه يدفعك للانهيار والبكاء..."

جئت إلى هنا كي تحل مشاكلك، لكن يبدو أن كل شيء قد تضخم أكثر، ما قد يجعلك تصاب بالانهيار ويدفعك باتجاه الحافة. تقضي ليلتك هنا، ومن يدري قد تكون الأخيرة، ككلب حقير آخر داخل قفص، والأطفال الصغار يلكزونه بكل ما في أيديهم. والكلاب (وما أكثر الكلاب في هذا العالم!) مخلوقات نمطية، وإذا تغير النمط فإنها تنهار سريعا...

ولأنك مثلها فأنت تعلم بأن الانتقال صعب لأنك لا تعرف كيف تتكيف مع طريقة اشتغال النظام، وأول من سيلكزك ستقوم بالهجوم عليه وافتراسه...

قف هنا وانتظر! إنه مدخل ضيق جدا، هذا الذي حشرت نفسك فيه، زاعما بأنه وحده يوصل إلى الحل، حيث فسحة لأخذ نفس عميق؛ لكني بت أشك في قدراتك فعلا!

أنا أتساءل إن كنت أنا أنا... الشخص ذاته، قبل أن يُقضى على ما بداخله فيفشل في كل شيء: في العمل، وفي مضاجعة عاهرة، فيتحول إلى قاتل للكلاب... وهذا مهين، مهين جدا!

لَكُنتُ فهمت ذلك لو أنني وجدت ضالتي هنا... لكن ذلك لم يحدث؛ فقط تضاعفت الهلوسة، واكتنزت مشاعر اليأس والإحباط لديّ.

في الخارج لم تتوقف الريح عن مضاعفة عويلها طوال الليل، وعندما كانت تهدأ قليلا كان صوت الثلاجة القزمة يعلو كمحرك شاحنة قديمة، فيعلو على ما سواه، ويضغط على أعصابي أكثر، ويسحقها ككسارة جوز!

جافاني النوم؛ وكنت مضطربا، منهكا، متداعيا، منهارا... أعيش حالة من الاغتراب والانمساخ، أناجي شمعتي وكأني بحاجة إلى أن أقيم الدليل على أنني بحاجة إلى كلب آخر أحاوره، أو أقتله!

(...)

(...)

في النهاية: هل نمت تلك الليلة؟

*** ***

الفصل التاسع:

الشبح

صباح اليوم الخامس عدت لممارسة هوايتي المملة:

على الكرسي الطويل مددت جسدي ورجليّ، أتأمل الأمواج المتكسرة على الشاطئ، بعد الليلة العاصفة. والنوارس عادت تمارس هوايتها المفضلة أيضا، وتنساب مع الريح التي هدأت كثيرا مقارنة مع ليلة أمس... فاستسلمتُ لحالة من التداعي الحر!

وفجأة قدحت في الدماغ فكرة ومضت كالصاعقة:

رحت أتخيل رجلا يخرج من البحر ويبدأ في تسلق الجرف بالتدريج باتجاهي... إنه يشبهني!

"لماذا لا يكون بطل قصتي؟" (قلت؛ ثم تابعت مناجاتي لنفسي، وكأنني وجدت ضالتي): "لا كلاب بعد الآن؛ لا منتحرين ولا مقتولين... سوف أرسم بطل قصتي شخصا يخرج من البحر..."

بدأت كتابة قصة رجل يخرج من البحر.

كتبت بضعة أسطر ثم توقفت – تماما كما حصل عندما بدأت كتابة قصة عن الكلب الذي صدمته – شُلَّ دماغي تماما عن التفكير؛ عاد إلى وضعه الأول كأنما قد تم تشميعه.

قضيت اليوم بطوله أبحث عن تتمة الحكاية: ما الذي سيفعله رجل يخرج من البحر؟

أجل: ما الذي يمكن أن يفعله رجل يخرج من البحر؟

ما الذي يمكن أن يفعله رجل يخرج من البحر؟ (رددت مرارا، وحلت هذه اللازمة بدل اللازمة الأولى اللعينة: ماذا ستكتب؟)

في المساء حاولت النوم، لكن السؤال المزعج ظل يؤرقني: ما الذي سيفعله رجل يخرج من البحر؟

لكنه ليس أي رجل: إنه الرجل الذي يشبهني!

طيب: ما الذي يمكن أن يفعله رجل، يشبهني، يخرج من البحر؟

(لا جواب؛ فقط عاد دماغي إلى وضعه المشمع، المشلول، الكسيح... يصر على معاندتي، والاصطفاف إلى جانب أولئك الذين تحالفوا ضدي!)

وبعد؛ ماذا ستكتب أيها الفاشل المهزوم، ماذا ستكتب؟

لا جواب، مرة أخرى، فقط صمت مريب يشبه صمت القبور...

هكذا فضلت أن أحتمي بصمتي، لحظات ثم حاولت الكلام، أريد الاعتراض على ذاتي المهزومة بشدة وعنف، فأحطمها وأشعر بنشوة الانتصار، قلت: "لكن..."

ثم خانتني العبارات فتوقفت، تنفست بعمق كما لو أنني أستعد لإلقاء قول ثقيل، لكنني لم أقل شيئا!

*** ***

في اليوم الموالي وضعت كرسيي الطويل قبالة الشاطئ، كعادتي، وتمددت أتأمل أمواج البحر تتلاطم أمامي، والحواف الممتدة إلى نهاياتها القصية، والنوارس المنسابة مع الريح... ومخيلتي تتمم معالم اللوحة السريالية فترسم رجلا... عفوا، ليس أي رجل، بل الرجل الذي يشبهني، وهو يتسلق الجرف باتجاهي!

إنه اليوم ما قبل الأخير عندي هنا، ولا أريد تمديد هذه العطلة التي استحالت قطعة من العذاب: "غدا سأرحل من هذا الجحيم!"

قضيت اليوم كله مستلقيا ولسان حالي يقول: "ما أشبه اليوم بالبارحة"!

"أجل؛ هذا ما ينقصك: ترديد الأمثال البليدة" (استدركت...)

استسلمت لكسلي اللذيذ، وأنا على يقين بأني لن أفلح في كتابة موضوع العدد القادم، من الجريدة، في موعده. تذكرت نبرة التهديد في عبارة رئيسة التحرير، عندما كنت خارجا من مكتبها قبل حوالي أسبوع، وشماتة زميلتي الفاجرة...

تذكرت أيضا الكلب الذي صدمته، والخنثى الذي استوقفني عند البوابة الزجاجية لـ"كوكب القردة"، والإخوة الأعداء في منطقة "بين لجراف"، و"قاديسا" مدينة الأشباح... ثم انشغلت بمتابعة نورس حلق منفردا، مع شمس الأصيل، فرحت أتابعه وقد نسيت كل شيء ما عداه...

وفي غمرة هذه المتابعة، وفيما يشبه المنطقة الممتدة بين الصحو والمنام، رحت أجاهد للتأكد مما كانت تراه عيناي:

هناك في السافلة رأيت رجلا يشبهني، يخرج فعلا من البحر ويتقدم باتجاهي، ويتسلق الجرف بالتدريج...

فركت عيني بقوة، وكأنني أهرب من كابوس، وأعدت النظر: هذا ليس حلم يقظة، وليس حلما داخل حلم! فهناك فعلا رجل يشبهني قد خرج من البحر توا، وبدأ في تسلق الجرف الصخري باتجاهي، بعد أن عبر المنطقة الرملية التي تفصل البحر عن الأجراف الصخرية!

أغمضت عيني بقوة في محاولة يائسة للاستنجاد بالنوم، وأنا أمني النفس بأن الاستغراق فيه قد يجعل هذا الهراء يختفي...

أذكر أن جاري، السيد "غريغور سامسا"، قال أثناء لقائنا الأخير بأن هذا ما يصيبك عندما تظل قابعا في مكانك لأيام، وأن الحرمان من النوم لمدة طويلة قد يصيب الإنسان بالغباء التام، كما أن كثرة التأمل لا تجعل المرء حكيما دائما، بل في كثير من الأحيان تكون نهايتها سيئة جدا، كأن يجد المرء نفسه قد تحول إلى صرصار يسكن شقا في أعلى الجدار، وأن الأمر يحتاج عندها أكثر من معجزة حتى تنتهي الأمور بسلام...

كنت أعلم، وأنا أرزح تحت وطأة القلق والحيرة، بأني أتعلق بأمل كاذب مجنون إذ أغمض عينيّ استجداءً للنوم، لأن الذي يشبهني كان يشق طريقه فعلا باتجاهي، فاستغرقت في صمت أليم!

نسيت رئيسة التحرير الفاجرة، وصديقتي السابقة – الفاجرة أيضا –؛

نسيت الكلب بن الكلب الذي صدمته، والخنثى – ابن الكلب أيضا – الذي استوقفني عند مدخل كوكب القردة؛

ونسيت النورس الذي كنت أتابعه قبل لحظات...

ألقيت بكل شيء في غيابات الذاكرة دفعة واحدة، وانشغلت فقط بهذا الذي خرج من البحر كمثل الأرنب الذي يخرج من قبعة الساحر، ووقفت مشدوها كأن تعويذة ألقيت علي فجأة، وعيناي جاحظتان، شاخصتان في هذا الذي خرج من الماء بكامل ثيابه وقد التصقت بجسده في شكل صليب، كأنه شماس ارتدى بطرشيله استعدادا لإحياء قداس... مثلي تماما قبل أيام!

"من أين جاء؟

لم يكن في الماء أحد قبل لحظات؟

ولا قبل ذلك؟! (قلت، كأني أجيب على سؤالي المستحيل بسؤال استنكاري)

ثم لنفترض أنه كان هناك أحد! ما هي احتمالات أن يكون هذا ال"الأحد" يشبهك كأنه توأمك المتماثل؟

كلا؛ لا يمكن أن يكون هناك أحد! إن هي إلا لعبة من ألاعيب الذاكرة، أو الخيال، أو ضربة شمس دفعتني للهلوسة...

أي شمس هذه أيها الأحمق، إنها لم تكد تظهر منذ يومين! ثم إنك لم تترك مكانك الظليل منذ أيام..."

كنت أسير كالمجنون جيئة وذهابا، وعيناي تأبيان مفارقة توأمي النظير الذي أسرني؛ فركتهما بقوة أكبر، وعاودت النظر:

... ليس هناك أدنى شك؛ هناك فعلا رجل، يشبهني، خرج توا من البحر، كأنما جاء من العدم، وهو الآن يتسلق الجرف باتجاهي، وكلما اقترب أكثر إلا وازداد الشبه أكثر... يقينا: إنه "أنا"؟!

- "هل تؤمن بالأشباح؟" (سألت نفسي مرتعبا، وقد بللت سروالي وتجمد الدم في عروقي...)

*** ***

الفصل العاشر:

حيوان "الكوكا"

كيف أصفه؟

متوسط الطول، ضامرا، بيدين معروقتين وعينين واسعتين... إنه أنا وكفى؛ أنا مع بعض الثقة الزائدة في النفس!

ترى ما الذي يخفيه تحت قناع "الكوكا" الذي يحمله؟ شمسا باردة كشمس هذا المساء الآفلة خلف غيوم رمادية متهدلة؟ ربما! ثم ماذا بعد؟ (أضفت إلى أسئلتي سؤالا آخر)

كنت ما أزال تحت مفعول الدهشة، أبحث عن وصفه، وقبل أن أنتهي من لعق جراحي المفتوحة، كان قد وقف أمامي ليذر عليها بعض الملح؛ وبدون مقدمات دخل في الموضوع مباشرة كنوبة قلبية! قال:

- "أنت السيد..." (وذكر اسمي صحيحا كما هو مكتوب في شهادة الميلاد)! ودون أن ينتظر الجواب راح يقدم نفسه:

- "أنا السيد..." (وذكر أيضا اسمي كما هو مكتوب في شهادة الميلاد)؟!

هل يريد أن يصيبني بالجنون؟

للحظات فكرت في أن كل هذا قد يكون مجرد مزاح ثقيل، من نوع "الكاميرا الخفية"، التي أصبحت موضة هذه الأيام؛ أو حالة من حالات "الفصام" الغريبة! لكن هل يعرف الفصامي بأنه فصامي؟

وفيما أنا أبحث في احتمالات الممكن والمستبعد والمستحيل... أعادتني صاوية اليقين إلى الواقع عندما سمعته يقول:

- "لست كائنا بشريا.. لقد أرسلني الله..."

قلت في نفسي: "لست المجنون الوحيد على الأقل"؛ أما هو فاسترسل في الكلام:

- "هل أنت مستعد سيد... ابن السيدة..." (وكرر اسمي وزاد عليه اسم أمي بالتبني، كأنما يريد القول بأنه يعرف عني كل شيء، فلم يزد إلا إمعانا في إغاظتي!)؛ توقف قليلا، ثم أعاد صياغة سؤاله:

- "هل سبق وفكرت في الانتحار؟"

هكذا جاء سؤاله مباشرا كطلقة مسدس! قبل أن يتبع الطلقة بأخرى:

- "هل تراودك أفكار سيئة بخصوص..."

لم أتركه يواصل فحزمت جوابي: - "كلا!"

- "هل تشعر بأنك في مكانك غير الصحيح؟"
- "كلا!"
- "هل تعاني من أي شيء؟"
- "كلا... كلا..."
- (...)

تابعت مُداريا: - "كل ما أعانيه بعض آلام الرأس!"

قال بثقة: - "أعرف! لكني أعرف أيضا بأن هذا أقل ما تعانيه، وآلامك النفسية أكثر..."

كان يقف بيني وبين منظر الشاطئ، فحاولت تغيير مجرى الحديث:

- "أرجو أن تتنحى عن مجال رؤيتي!"
- "وأعلم أيضا أنك بهذا تريد فقط تغيير مجرى الحديث، لكنك لست ديوجين[11]."
- "اللعين..." (قلت في نفسي)
- "وهذه أيضا علمتها!"
- "هل أنا في حضرة الشيطان؟" سألت هذه المرة بصوت مرتفع، قبل أن أصرخ في وجهه، أو في وجهي بالأحرى:
- "مهلا؛ أريد وقتا مستقطعا... أريد أن أفهم؟"
- "وأنا أريد أن أتبول، فهل تسمح لي باستعمال الحمام؟"
- "اذهب تحت الشجيرات..." (غمغمت)
- "شجيرات؟ لكني لم أطلب تبادل القبل معك!" (قال وهو يهز رأسه مستهزئا، ثم توجه نحو الشجيرات فعلا).

[11] - ديوجين الكلبي (404-323ق.م) مؤسس المدرسة الكلبية (القائمة على احتقار العادات والثقافة ونبذ الثروة والجاه وكل المتع الحسية...). تجري الأسطورة أنه عاش داخل برميل. يحكى أن الإسكندر وقف أمامه يوما وقال: "أنا الإسكندر الأكبر"، فرد عليه الحكيم: "وأنا ديوجين الكلبي". فقال الإسكندر: "تمنّ عليّ ما تشاء"، فرد الحكيم: "تنحّ من أمامي، فأنت تحجب عني أشعة الشمس".

وقفت مواجها للبحر، شرعت صدري لرائحة الملح، كنت مرهقا من اضطراب النوم الذي رافقني منذ أيام، مما جعلني أبدو شاحبا كما لو أني تقدمت في السن فجأة، فأضفت سنوات إلى عمري: جمعتها في أيام وألقيت بها في وعائي الزمني دفعة واحدة.

كنت أشعر دائما بأن الزمن يسير معي بوتيرة بطيئة أكاد أراه كما في ساعة رملية، وكنت أتساءل هل هو يتدفق في الآخرين بنفس الوتيرة؟ فأنا كنت ميالا إلى الخلوة والانكفاء على الذات، أقنع، وأستمتع، بأبسط الأشياء: قطرة ماء تتدلى منزلقة من على سقف قرميد، أو تناظر الخطوط على ورقة شجرة توت عريضة، أو أرجل عنكبوت طويلة ورقيقة تنساب وهي تحيك شبكتها... بينما الآخرون يتحركون بسرعة، ودائما على عجل، تستهويهم كثرة الأسفار، والسهرات الماجنة الخليعة، وأنواع الأطعمة الدسمة الدهنية حتى لو كانت أجسادهم مشبعة بالدهون...

لكني الآن أواجه نقيضي تماما، رغم أنه يشبهني حد التطابق، وهذه مفارقة أخرى... هناك دائما خيط رفيع بين المتناقضين: الشجاعة والجبن؛ الصدق والكذب؛ الليل والنهار؛ الكفر والإيمان؛ أنا وأنا/الآخر...

كنت ما أزال شاردا أعدد المتناقضات التي أعرفها، عندما فاجأني من الخلف فأفزعني من أحلام يقظتي بأسلوب وقح...

نظرت إليه ولم أقل شيئا.

نظر إلي ولم يقل شيئا أيضا... ساد صمت ثقيل بيننا، صمت مشحون بالمعاني المكتنزة بالمشاعر الداكنة، الكافرة بكل ما يمت إلى الألفة بصلة.

– "اعتقدت بأن الشجيرات قد ابتلعتك..." همهمت؛ فابتسم مرة أخرى...

*** ***

كان قد غاب عني للحظات ثم عاد!

عندما اختفى خلف الشجيرات اعتقدت برهة بأنني أستيقظ من كابوس؛ لكنه عاد... عاد فأعادني إلى الكابوس من جديد!

كان ما يزال يصلح هندامه، من أثر التبول، عندما قال:

- "تبدو مكتئبا جدا!"
- "أجل فقد تعرضت للإخصاء مرتين..."
- "أما أنا، ولا أقصد الإهانة، فأشعر وكأن محرك "توربو" بين فخذي."
- "اطلب خدمة الغرف إذن، إن كان هذا يعزيك!" قلت وكنت في قرارة نفسي أتمنى أن أقلب هذه الصفحة، لكني حاولت فوجدتها عصية على القلب؛ لقد كانت أكبر من قدراتي! فصغرتُ في عيني كتلميذ خائب يتعرض للتوبيخ لأنه لم ينجز فروضه... أردت أن أستفزه فقلت:
- "أنت شيطان..."
- "وأنت بهذا تهين الشيطان" (قال؛ ثم تابع): "لقد أصبحت رومانسيا حالما أكثر من اللازم، ورقيقا وناعما كالملابس الداخلية للسيدات..."

تذكرت زميلتي في العمل، لأنها كانت تردد هذه العبارة باستمرار، وقلت باستغراب: "توقف! أين سمعتَ هذه العبارة؟" اتسعت ابتسامته أكثر وتجاهل سؤالي، ثم نطق اسم صديقتي السابقة وقال: "لقد فشلتَ في كل شيء حتى في مضاجعة عاهرة. أما أنا فلكنت سحبتها من شعرها بوحشية، كما كان يفعل رجل الكهوف البدائي، ثم لجعلتها تجثو على ركبتيها وتركع، وترضع ما ينبغي رضاعته..."

إنه غريب الأطوار حقا: لما قدم نفسه في البداية وجدته مجنونا، مجنونا يشبهني، وتلك كانت مفارقة؛ ثم وجدته هادئا وحكيما بعد ذلك، فقلت لا بأس؛ دعنا نأخذ الحكمة من أفواه المجانين، أما الآن فإنني أجده مجرد سافل يتصرف على طبيعته... فهل أنا سافل أيضا؟ ها أنا أعيد اكتشاف ذاتي فيه، وهذه مفارقة ثالثة!

كان واضحا أن شيئا مقدسا، سريا، هو الذي جمعني به، وقد عجز عقلي الكليل عن إدراكه في حينه... كان مفاجئا وقويا كأشعة الشمس الساطعة التي تجعلك عاجزا عن

التحديق فيها وأنت خارج من كهف مظلم خراب؛ وعوض أن تواجه مصيرك، أو توجه نداء استغاثة على الأقل، فإنك تختفي وراء تعداد عيوب الآخرين، العالقين مثلك في كهوف تخصصهم، فنحن نسعد بتعداد عيوب ومثالب الآخرين لأننا نعجز عن مواجهة عيوبنا. همست لنفسي وأنا أربت بيدي اليمنى على ذراعي الأيسر؛ لكنه أحس بي فانتشلني من أحلام يقظتي ثانية:

- "الآن وقد حصل التعارف بيننا؛ دعنا نبدأ من النهاية، ثم نعود بطريقة الفلاش باك..." (قال)
- "الفلاش باك! كما في قصة الكلب الذي صدمته؛ لكن الأمر في غاية التعقيد!" (عقبت باستخفاف)
- "ومن قال غير ذلك؟" (ردّ باستخفاف أمرّ)
- "لا تبدأ في الترميز مرة أخرى!"

فيما كنت أنتظر أن يشرح لي كلامه الذي ألقاه أمامي كاللغز، واصل هو حديثه الملغز أكثر فأكثر! وعندما قلت له بأني لم أفهم شيئا مما قاله، أجابني: "ليس عليك أن تفهم التجربة؛ بل عليك أن تعيشها؟" فلم أعلم حقيقة هل أنا أمام حكمة عظيمة أم نكتة سمجة؟

- "كانت لديك فرصة كبيرة لبناء مستقبل مجيد، لكنك أهدرتها..." (واصل القول)
- "كنت فقط أحاول البحث عن كتابة قصتي؛ لكني انتهيت بأن قتلت كلبا!"
- "إن سوق الكلاب رائجة جدا، خاصة في موسم التزاوج، وأنت تقتلها!"
- "اشتغل قوّاد كلاب إذن!" (قلت؛ وكنت أجاهد كي أخفي انفعالي)

(قاطعني مرة أخرى): – "كفّر عن ذنبك في مكان آخر غير هذا..."

عندما قال ذلك شعرت كأن سحبا ثقيلة رصاصية اللون هبطت مني على موضع القلب فأغمّته. تمنيت أن أجعله يبلع ابتسامته، ولسانه؛ لكن عوض ذلك أسدلت جفني فأحسست بحرقة شديدة في عينيّ؛ هل كنت أبكي أمامه؟ "إلا هذا..." قلت في نفسي، وظللت ساكتا للحظات كأن لساني قد استل من مكانه.

- "آسف بسبب انهياري بين يديك؛ إنها مشكلة جينات... فأنت لا تشعر.." (قلت، فقاطعني):
- "ليس لك أن تقرر بشأن شعوري!"

...(صمتٌّ)

(تابع حديثه مزهوا): - "تبحث عن تتمة الحكاية؟ أهَهّا.. قبل البحث عن الإبرة داخل كومة القش يجدر بك البحث عن الكومة أولا!"

- "ليس لك الحق في إذلالي..." (قلت، وبدأت في قضم أظافري..) "... ليس عليك أن تعريني؛ ثم إنك تولد في داخلي كراهية وأنا أحاول ابتلاعها، لكنها تتراكم، وتتراكم... وبي رغبة شديدة في تحويلها إلى عراك..."
- "أجهل ما الذي ينتظرني إذن؛ وكأن جولة مصارعة ستبدأ من جديد؟" (قال مستهزئا، وبنبرة تساؤل متعال).

فيما كنت أتساءل، بحجمي المتضائل، بيني وبين نفسي: "أنا الذي استدعيت الشيطان، وأعطيته خنجرا فطعنني به، وهو الآن يلويه - في موضع الجرح الغائر - مستمتعا بذلك! لماذا لم أتخيل امرأة مكتملة الأنوثة بطلة لقصتي؟ ربما كانت ستخرج من البحر كمثل حورية؟ وربما كانت لتغرم بي؟ وربما كنت في وضع آخر أحسن بكثير الآن؟ وربما... وربما... وربما..."

تركني أعُدُّ أسئلتي، وبعضي يأكل بعضي. نظر إلى البحر، وأعطاني بظهره كأنما هو في لعبة ركحية وقد كسر جدار الحاجز الرابع، وراح يواصل تلاوة طلاسمه:

- "هناك "اليين" وهناك "اليانغ"؛ هناك الذكر وهناك الأنثى؛ النور والظلمة؛ القوة والضعف؛ الخير والشر... أما العدالة فليس لها إلا مطرقة واحدة!

(...)

قلت في نفسي: "هذا ما كان ينقصني؛ قرد آخر أحمله على منكبي وأتحمّل هلوسته!" غافلته، أو هكذا خيّل إليّ، وتسللت إلى البيت وحدي، وأغلقت الباب بإحكام؛ أغلقت النوافذ أيضا بإحكام مبالغ فيه، وأطفأت جميع المصابيح فيما عدا مصباح الردهة. كنت أخاف أن يتسلل من عقب الباب، أو من ثقب المفتاح، أو من أي ثقب آخر: ألاَ تتسلل الأشباح من أي شيء حتى لو كان خرم إبرة؟

ألقيت نظرة عبر نافذة صغيرة، بعد أن أزحت ستارها قليلا، فوجدته قد أخذ مكاني على كرسيي الطويل، وتمدد عليه.

كانت الشمس قد مالت نحو المغيب، واستعد الليل لإرخاء سدوله كزائر ثقيل يسحب عباءته السوداء وراءه، وأنا كنت خائفا جدا من أن ينجح في التسلل إلى الداخل، فسمرت عينيّ عليه، أخادع نفسي بأني بذلك أسمّره في مكانه! أما هو فلم يبدُ أنه اهتم لأمري، بل ظل يراقب الأمواج المتلاطمة عند السافلة بلامبالاة قاتلة، فزاد الضغط على أعصابي...

"اللعين! أخذ مكاني: يراقب منظر الغروب، والبحر الممتد، والنوارس المسافرة مع الريح، ويملأ رئتيه من رائحة الملح... وأنا مسمّر هنا كالمخالس!" (مع فارق بسيط هو أن المخالس عادة ما يستمتع بما يحدق فيه أما أنا فكنت أتعذب به).

لم يتحرك من مكانه، ولا أنا تحركت من مكاني: هو يراقب البحر، ويستمتع بكل شيء! وأنا أراقبه، وأتعذب في مكاني محروما من كل شيء!

بدأ الظلام يسدل أستاره أكثر، ولم أعد أميز غير ظل شبح ممدد على الكرسي الطويل، لا يتحرك من مكانه... طال الأمر ولم يتحرك اللعين!

مرّت ساعة؛

ساعتان؛

ثلاث ساعات؛ وربما أكثر...

طال الأمر أكثر، وأجبرتني التقلصات العضلية والخدر الذي سرى في الفخذين والساقين على التحرك من جوار النافذة – التي اتخذتها برجا للمراقبة – بضع مرات، لأطلق ساقي في بهو البيت، بضع خطوات، لا يتعدى عددها أصابع اليد الواحدة، قبل أن أعود للمراقبة بشغف عند كل مرة، ففكرة تسلله إلى هنا – معي... وحدنا – كانت ترعبني؛ وفي كل مرة كنت أعود فيها لبرج مراقبتي كنت أجده ما يزال مسمّرا في مكانه: لا يبدو أنه قد تحرك، ولا يبدو مستعدا للتحرك؛ ولم أكن أعلم ما الذي بات يراقبه وسط هذا الليل البهيم، مع هذه البرودة الشديدة التي نزلت بثقلها على المكان: كيف يمكنه أن يقاوم كل هذا؟!

طال الأمر؛

وطال الأمر أكثر؛

وفجأة – وكأنما شعر بأنني أتلصص عليه – التفت نحوي في ذلك الليل البهيم المنذر بالشؤم، فلمعت عيناه كنجمتين مستعرتين أوجرتا في مرجل معلق بين السماء والأرض، وأخذ يحدق بالضبط إلى النافذة التي اتخذتها برجا للمراقبة ونظراته تخترقها كما اخترقت سواد الليل

الكثيف، واستمر على ذلك لحظات خلتها أعواما! ورغم أني كنت قد أطفأت مصابيح الغرفة حتى أتقن اللعبة، إلا أنني انتفضت في مكاني؛ كتمت شهقتي وغمرني رعب شديد، وتحسست جلد الدجاج على ذراعي...

وكما التفت فجأة، عاد إلى وضعه الأول الساكن المقابل للبحر، فجأة أيضا! وظل كذلك هادئا، رابضا في مكانه، يضغط على أعصابي فيسحقها...

طال الأمر مرة أخرى؛

وطال الأمر أكثر؛

ثم طال الأمر أكثر من اللازم، فلم أعد أحتمل...

(...)

(...)

قلقا كنت عندما هزمني النوم في مكاني، وعندما استيقظت، كان كل عضو في جسمي قد تكسر، وبدوت مستعدا للشجار...

*** ***

الفصل الحادي عشر:
المكاشفة

عندما استيقظت – في اليوم الموالي – كان الوقت متأخرا جدا، بل أكاد أجزم بأنه كان قد جاوز الظهر، وكنت مكورا في مكاني محطم الروح والجسد؛ مرعوبا وأنضح عرقا، رغم أن الجو لم يكن حارا أبدا! كثير من الريق قد بلل الوسادة التي استندت إليها، ولساني يؤلمني لأنه بات تحت أسناني، أما رأسي فكانت ثقيلة كأحجار الطواحين...

سارعت إلى برج مراقبتي، فرأيت بقايا الضباب تتبدد من على الأفق، لكن اللعين كان ما يزال ممددا في مكانه الذي تركته فيه ليلة أمس! أو بالأحرى قد "سبقني" إلى كرسيي الطويل وتمدد عليه في استرخاء، وإبريق الشاي إلى جواره، وعلبة حلوى تشبه التي اشتريتها من "كوكب القردة" قبل أيام!؟

نظرت إلى إبريق الشاي وقد تدلّت شفتي السفلى، وتقافزت إلى الذهن عشرات الأسئلة: من أين جاءه إبريق الشاي؟ من أين جاءته علبة الحلوى أيضا؟ أيكون اللعين قد نجح في التسلل إلى البيت؟ لكن كيف فعل؟ ومتى؟ ومن أين؟...

قفزت إلى المطبخ فوجدت إبريق الشاي قد اختفى فعلا!

وبكثير من الحذر توجهت نحو باب البيت وفحصته جيدا، فوجدته ما زال مغلقا بإحكام، تماما كما تركته ليلة البارحة؛ ثم توجهت نحو النوافذ، بالحذر نفسه، وفحصتها أيضا، واحدة واحدة، فوجدتها على حالها التي تركتها عليها أمس لم تتبدل: فمن أين دخل اللعين؟

اللعنة عليه!

اللعنة على النوم الذي هزمني!

اللعنة عليّ!

خرجت وهممت بإغلاق الباب ورائي، لكنني أحجمت، وتساءلت بيني وبين نفسي عن الجدوى من ذلك؟

خرجت، كما استيقظت، حتى دون أن أغسل وجهي؛ سرت بضع خطوات ووقفت إلى جواره، صامتا واجما، وعيناي مسمرتان على إبريق الشاي، تفحصان كل صغيرة وكبيرة فيه، فازداد يقيني بأنه الإبريق الذي اختفى من المطبخ! وازداد يقيني بأن اللعين قد نجح في التسلل إلى بيتي، وربما بات يقاسمني فراشي ليلة أمس: هو وأنا وثالثنا الشـ... هل هو

"مثلي" جنسيا؟ (امتدت يدي إلى مؤخرتي أتحسسها؛ وأنا أفكر في المخنث الشاذ الذي صرخت في وجهه قبل أيام).

- "أنت هنا؟" (قال بهدوئه القاتل)

لم أجب (...)

- تبدو كعربيد خرج من ستينيات القرن الماضي!

لم أجب أيضا (...)

- "كان شخيرك يملأ المكان، كما أنك نمت دون غطاء، وقد خشيت أن تصيبك نزلة برد، فجو الخريف متقلب كما تعلم، وأنا كنت مستعدا للقيام بأي شيء يدفئك، لكن..." (ثم توقف عن الكلام بطريقة مستفزة، فزادت شكوكي، ورحت أتحسس مؤخرتي من جديد!)
- "لم أستطع النوم ليلة أمس.." (سارعت إلى الإنكار، كأي بَغِيّ تنفي التهمة عنها، وأنا أكظم غيظي، وكنت أعلم بأن النوم غافلني فهزمي ليلتها، فزاد غيظي!)
- "ولا أنا..." (رد بهدوء دائما، ثم واصل):
- "سأصلي من أجلك، ومن أجل الآخرين، أولئك الذين يسعون جاهدين للحفاظ على ما تبقى من إنسانيتهم، في نظام يدفعهم للعزلة والجنون... إنه عالم من الأوهام هذا الذي جئتَ منه... ومنه مقذوفا إلى عالم آخر سوف ترحل؛ هكذا دون سبب تعلمه كنتَ لمّا أتيت، ودون سبب تعلمه ستكون لمّا سترحل! إلى أين تسير؟ دروب عديدة متقاطعة تحتاج إلى تأويل؛ تحتاج عيني عرافة غجرية بصيرة قادرة على قراءة خطوط الكف بعناية..."

(لم أقل شيئا؛ ولم أفلح في إخفاء اضطرابي، فيما استرسل هو في الكلام):

- "استمع إلى الموسيقى: إنها "كارمينا بورانا"، بكل معانيها المتناقضة، وقد تساعدك على الهدوء والاسترخاء..."

انتبهت إلى أنه كان قد أدار المسجلة أيضا، فتعاظمت شكوكي وهواجسي! وكنت كالسمكة التي أجهدتها مقاومة الشباك، فاستسلمت لمصيرها أخيرا، وقد أجاد اللعين استغلال الموقف؛ فقال، بعد لحظات إصغاء إلى المقطع الموسيقي الأول/"فورتونا"، الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب:

- "دعني أدخل إلى دماغك أكثر لأتعلم كيف أفكر كما تفكر، وأتصرف كما تتصرف، وأعرف عنك كل التفاصيل..."

قلت غاضبا: – "أجل فالشيطان يعشق التفاصيل التي يسكنها؛ لكن لا أحد يشبهني، فقط أنا وحدي!"

سكتُّ برهة؛ ثم استدركت فيما يشبه الاعتراف الذي يرسله المحكوم بالإعدام: "أنا كتاب مفتوح لديك!"

- "وأنت الآن مغلق..."
- "لم أعد أفهمك!" (قلت حائرا)
- "هذا لأنك لم تقرأ كتيب التعليمات جيدا" (رد باستهزاء)

لم أعد أتقن غير الصمت معه، حيث لا مجال للمناورة أو المداراة أو الخديعة... لكن حتى الصمت لم يعد من حقي؛ بما أن اللعين كان ينجح في استفزازي دائما، حتى لو استدعى الأمر مجرد كلمة؛ كلمة صغيرة، مثل:

- "ماذا؟"
- "ماذا؛ ماذا؟ (أجبت على السؤال بسؤال، ووجهي يكاد يتشقق من فرط الغضب.)
- هل ستحرمني من مصروفي اليومي؟"

رد، وظل وجهه يشبه "وجه البوكر"، أو حيوان "الكوكا"، باردا ويعطيك دائما نفس التعبير...

بعد لحظات أضاف قائلا: – "اقترب، لن أؤذيك؛ هنا تنتهي أنت، وأبدأ أنا..." ثم اقترب مني حتى لامست جبهته جبهتي، ووضع يمينه على كتفي، ثم وضع يميني على كتفه، وقد ترتكته على سجيته. قلت لنفسي أعزيها: "لا شك أننا الآن نشبه أحد طلاسم "رورشاخ" فعلا!"

قلت لنفسي أيضا وقد انتبهت إلى أنه لم يعد ينقصه إلا أن يخاصرني: – "هل يريد أن يراقصني؟ الشاذ؛ المنحرف... لا شك أن التصاقنا ببعضنا قد أعجبه!" فدفعته بعيدا عني، كما دفعت الخنثى قبل أيام...

استجمعت آخر أنفاسي وصرخت في وجه حيوان "الكوكا" الذي أمامي، لعلي أجعله يتوقف عن الابتسام:

- "هذه هلوسة، ولا يمكن أن تكون حقيقة..."
- "بل هي حقيقة فعلا؛ وقد انتهى الأمر..."
- "اخرج من دماغي أيها الشيطان!" (وضعت كفّيَّ فوق أذنيَّ وصرخت، وكنت أتوقع أن تثور ثائرته).

لكنه ظل يبتسم ولم يقل شيئا، فتشجعت أكثر وزادت ثقتي بنفسي فواصلت الكلام:

- "أنت مجرد شخصية من تأليفي..."

وقبل أن أضيف أي كلمة أخرى، اتسعت ابتسامة "الكوكا" أكثر عندما سمع عبارة: "شخصية من تأليفي"! وراح يردد الجملة مرارا، وهو لا يتوقف عن الضحك، فانهارت كل دفاعاتي التي استجمعتها قبل لحظات، وكنت قد بذلت جهدا كبيرا من أجل ذلك...

- "لكن دعنا نلعب اللعبة" قال؛ وكأنه يجاريني في جنوني!
- "هل لك في كأس شاي؟" (واصل حديثه)
- "اللعين! يدعوني إلى طعامي في بيتي..." (قلت في نفسي).

كنت فعلا محتاجا إلى كأس شاي، لكن كبريائي منعني من قبول عرضه؛ قلت:

- "كأنني أتعرض للابتزاز؟"
- "إنك تتعرض للابتزاز فعلا!" (أجاب؛ ولم يكلف نفسه حتى مؤونة الالتفات نحوي)
- "يقيني أنك مجرد وهم؛ ظل؛ لهو باطل؛ شخصية من نسج خيالي..." لكنه لم يدعني أواصل!
- "من يريد أن يلعب دور الخالق هنا، فيحيي من يريد ويميت من يريد؟" (قال بسخرية ماكرة قبل أن يستمر في الكلام، كأنما يجيب عن سؤاله الاستنكاري، مصاعرا خدّه دائما):
- "نعم؛ نعم... أنتم الكتاب! إنكم تنصبون أنفسكم، بدون تحرج، حكماء؛ معلمين للجميع؛ مديري ضمائر... الأرومة المزروعة في قلب الوطن، والتي على الجميع أن يتفيأ بظلالها حتى بعد قطعها، والأنكى من ذلك تناول ثمارها حتى لو كانت مرة أو حامضة..."
- "أنت وغد!" (قلت؛ وكأنني أعيد كلمات الخنثى اليائس الذي استوقفني عند مدخل "كوكب القردة")

- "وغد! سمعت هذا منك سابقا، وأعتقد أنها ليست الكلمة المناسبة..."
- "كأنك تقرأ أفكاري!" (قلت وكنت أحاول تسريع وتيرة الحوار، في محاولة يائسة مني لمحاصرته في الزاوية.)
- "وأنا أتمنى أن يكون أدائي مقنعا..." (رد وهو يتصنع بذل الجهد ليكتم ابتسامته... لكن هل يستطيع ال"كوكا" أن يعطيك انطباعا مغايرا؟)
- "فقط توخى الحذر، فالمتن مليء بالمطبات؛ أيها الوهم!" وشدّدت على كلمة "وهم" كأنما أريد أن أقيم البينة عليه، فيقتنع في النهاية بأنه وهم فعلا، أو كنت أقنع نفسي بأنه سيقتنع في النهاية بأنه وهم، أو أنه سيتبخر فعلا كأي وهم... أو أي شيء آخر من هذا القبيل! لكن لا شيء من كل هذا حدث... فالشيطان كان يأخذ دوره على محمل الجد؛ فقال:
- "لا تخش علي شيئا؛ فقط ركز على حالك... ثم إن هذا أفضل جزء من دوري، فأرجوك لا تفسده!"

صب لنفسه كأسا ثانية، أو ثالثة... لم أعد أذكر؛ فالإبريق أمامه وهو يتصرف كما لو أنه هو من دفع إيجار البيت فعلا! كان فمه ما يزال ممتلئا عندما دفع إليه بقطعة حلوى كبيرة أخرى؛ هكذا دفعة واحدة: هو لا يتوقف عن المضغ كأنه ثور الله في برسيمه، لا يخشى المواد المسرطنة ولا طعم الصدأ المقزز! وأنا كنت أتوقع أن يدعوني إلى كأس شاي، كما فعل في البداية، لكنه لم يفعل فزادت حسرتي...

- أهذه مؤامرة لإفساد قصتي؟ (قلت خاسئا حسيرا)
- أنت من أفسدها منذ البداية: ألم تترك فراغات كثيرة في النص ووقفت عاجزا عن ترتيبها وملإها، حتى إنك استجديت عاهرة من أجل ذلك؟
- املأ الفراغات بنفسك...
- ما دخلي أنا؟ أنت الكاتب وكنت أعتقد أنك تعرف كل شيء هنا!!!
- السماء وحدها تعرف كل شيء...
- أنا أنتشلك من المشاكل، وأنت توقع نفسك فيها! منذ البداية وأنا أحاول فقط أن أجعل حياتك منظمة أكثر حتى تتمكن من أن تحياها..

- كيف انتهى بي المطاف إلى هذا؟ (قلت دون شعور مني؛ فقط خرجت الكلمات هكذا، تنفيسا عن حالة اليأس التي وصلتها).
- هكذا أنت دائما: تحشر شخصياتك، في صفحات بئيسة، وترحل... لقد عاشرتك في أعمال سابقة، مدة سنوات، ووجدت أنك لا تعرف حتى كيف تصوغ عناوينك الرئيسة!
- وأنت، مع كثيرين غيرك، كنتم تصرون دائما على إشعاري بأنني أضيع وقتي معكم! تعذبوني بتجاهلكم الوقح؛ تعششون بين ثنايا دماغي كالفطريات التي تنمو بين أصابع القدمين، وتعلنون الثورة في أوقات غير مناسبة؛ وتشعروني بأنني مجرد عجوز ثرثار يمضي وقته في ترتيب أدواركم، وإعادة ترتيبها كل مرة تفسدون فيها حيواتكم؟

كانت "كارمينا بورانا" في آخر فصول "محكمة الحب"؛ انتابني إحساس عميق بالضعف، والغبن، وكأنني وقعت في مستنقع وبدأت أطلب الرحمة من تمساح، وفوق ذلك كنت أشعر بأن مثانتي تكاد تنفجر، فأنا لم أذهب إلى الحمام منذ ليلة أمس، وقد حضرت إلى هنا مرعوبا بمجرد أن استيقظت ظهر هذا اليوم... بدأت أتحرك في مكاني فأحس بي اللعين؛ قلت وكأني أستأذنه:

- "أريد أن أتبول!"
- "اذهب تحت الشجيرات..." (قال وهو يرد لي جملتي السابقة وكأنها دَيْن في ذمته!)

لم أعرف ما الذي أصابني بالضبط! لم أشعر إلا وأنا أترك البيت خلفي وأتوجه نحو الشجيرات فعلا؛ ربما لأن مثانتي كانت ستنفجر ولأن الشجيرات أقرب، وربما لأني أردت خوض التجربة، تجربته هو!؟

اختفيت خلف الشجيرات وتمنيت، في أعماقي، لو أن ما أعيشه مجرد شطحات من نسج خيالي...

- "ربما!" قلت في نفسي وكدت أصدق ذلك.

هبت ريح باردة كئيبة على الشجيرات فتحركت الأغصان؛ التفت ورائي وكنت أخاف أن يتجسس علي: "الشاذ؛ المنحرف..." قلت في نفسي، ثم كررت مرة ثانية: "الشاذ؛ المنحرف؛ اللعين... لا يجب الاطمئنان إليه!"

- "يجب أن أقتله!" (وضغطت على أضراسي بقوة)

*** ***

أذكر أني قلت سابقا عن هذا اللعين، عندما ذهب للتبول واختفى خلف الشجيرات، بأني اعتقدت برهة بأنني أستيقظ من كابوس؛ لكنه عاد...

عاد فأعادني إلى الكابوس من جديد!

إذن؛ ها أنا أعيد ذلك مرة أخرى! فقط هذه المرة أنا الذي اختفيت خلف الشجيرات، لكنني عدت...

عدت فأعدتُني إلى الكابوس من جديد!

يجب أن أقر، أولا، بأنني حتى عندما اختفيت خلف الشجيرات، وكنت قد اتكأت بمرفقي على إحداها وأحنيت رأسي كما يفعل السكير عند التبول، كنت ما أزال أسمع صوته في رأسي، مختلطا مع أصوات أخرى لم أميزها، لكن صوته كان واضحا وقويا أكثر منها جميعا، بل أكثر مما ينبغي، لأنه كان يسيطر على تفكيري ويزعجني.

يجب أن أقر، ثانيا، بأن بردِ المساء كان كالإبر: حادا ويخترق الجلد ليسكن في العظام ويطغى على قرص الشمس الباهت الواني، فيجعلني أرتجف. وكان رأسي قد أصبح أكثر قساوة لكنه لم يصبح بُنّيا بعد، كرأس السيد "سامسا"؛ ولهذا فلا يبدو أن البرد وحده ما كان يجعلني أرتجف، فحالتي كانت تسير نحو الأسوأ، وهذا وحده سبب آخر، كاف، للارتجاف.

لكن قبل ذلك، أي قبل أن يحصل الارتجاف الأعظم وقبل أن يحصل التحول الأسوأ، عندي حساب عسير علي أن أصفيه مع حيوان "الكوكا" الذي طلع عليّ من العدم، وعليّ أن أعيده إليه من جديد. ولأجل ذلك عليّ أن أجعل جهنمي الخاصة تضطرم بقوة، وترفع موارجها الملونة أكثر إلى الأعلى، وتستعر، حتى تحتضن الشيطان.

غضبت وحبست أنفاسي؛ كان وجهي شاحبا كجذع شجرة يابسة، وكان عليّ أن أعدل خريطتي الوراثية؛ لذلك رحت أعاند حتى أحطم القوقعة التي عشت فيها دائما، عسى أن أتمكن من محو ذكرياتي المريرة، مرارة الهزيمة، منها.

لقد خنت نفسي طويلا: كنت محتاجا لكل هذا حتى أعرف بأن حياتي كانت مجرد كذبة. لم تكن لديّ أنياب، بل كنت رخْوًا داخل قوقعة ضيقة حسبتها كل العالم، وليس فيها أي مساحة للفرار، والواقع أنه لم تكن لدي إرادة للفرار أيضا؛ أما الآن ولمرة واحدة أجدني

أرغب حقا في التحرر والانعتاق، ولأجل ذلك لا بد من مواجهة شيء ما؛ لكنني لم أتصور يوما أن هذا ال"شيء ما" يمكن أن يكون أنا، في شكل آخر، يشبهني ويختلف عني في آن واحد: أنا/الآخر.

استجمعت قواي وقلت: لم يعد أي شيء فيّ رطبا! بعينين ناريتين، وجلد خشن كجلد ثعبان وهو يسلخ جلده القديم، وقلب بقساوة الصوّان... سوف أواجهه؛ وكُلّي رغبة شديدة في أن أملأ فمه الثرثار بقبضة من الرمال.

أية روح شريرة نبتت هنا فجأة؟ لقد تفتقت في داخلي ونمت بين أحضان شرنقتها المغلفة بالحرير. لم أحب ذاتي يوما بل كنت أشفق عليها دائما؛ لكن ذلك العهد قد ولى الآن.

الآن قد نما الشرير في داخلي، بأنيابه المكتملة الحادة، ولن أفلته.

تتاهت إليّ ابتسامة "الكوكا" الخبيثة التي تدّعي البراءة، وتحاول إقناعك بذلك، فلا تزيدك إلا مرارة واستياء؛ وأول شيء تجعلك تفكر فيه: إخراسها إلى الأبد!

"لكنك لست قاتلا!" قلت في نفسي؛ ثم ارتسمت على شفتيّ ابتسامة خبيثة كابتسامته وأنا أواصل حديثي: "كلنا يخفي قاتلا تحت جلده؛ ثم إني سبق وقتلت كلبا!"

على هذا الشاطئ المهجور، أنا اليوم إما قاتل أو مقتول، ورغم الهدنة الكئيبة التي عقدها المساء فإن الشعور بالغضب، الممهور بالاختناق، كان يطبق عليّ، وقد نما بداخلي وتوحش، وأحال المكان إلى ساحة معركة. أجل فالمكان الذي يجمعني بعدوي اللدود هو ساحة معركة فقط، والطبيعة فظّة وقاسية، كما قال "ميرسو" سابقا، ولقد قست عليّ بما فيه الكفاية، ولكل ذلك يجب أن أكون أقوى وأذكى منه.

يجب أن أقتله! هكذا بكل بساطة.

*** ***

خطوتُ من خلف الشجيرات بحذر شديد؛ قمت بخطوة أولى ثم توقفت! سحبت رجلي في خطوة مترددة ثانية: أن أموت أنا أو يموت هو فالأمر سيان في النهاية؛ ثم إن التفكير في هذا الأمر عديم الأهمية في الواقع.

"أإلى هذا الحد تراني أمقته، أم تراني أمقت ذاتي؟" (تساءلت)

طوال الأشهر المظلمة الماضية كنت أسوق قدري بين يدي ولم أعلم بذلك؛ "أتراه يعلم بذلك هو؟" تساءلت في نفسي من جديد، قبل أن أجيب: "لا بد أن أواجهه! لا بد أن أصب عليه كل ما كان يغلي بداخلي من غضب طوال شهور، أو سنوات... لا بد أن أمسك به من تلابيبه وألقي به إلى الحافة..."

كنت أحادث نفسي، وأتوعده، وأشحنها بكل ما خطر على بالي من عبارات التهديد والوعيد؛ ومع كل خطوة كنت أخطوها كان الدم يغلي في عروقي أكثر، وكنت أضغط على أضراسي مع كل جملة أرددها. لكن عندما خرجت من خلف الشجيرات ونظرت إلى المكان الذي كان يتمدد فيه، وجدت اللعين قد اختفى! اختفى حيوان "الكوكا" كما اختفى إبريق الشاي وعلبة الحلوى! فوقفت مشدوها وقد عقدت المفاجأة لساني، وشلت كل تفكيري.

في البداية تجمدت في مكاني كتمثال من الملح، كما في الأسطورة الشهيرة؛ ثم ارتفعت يداي بتثاقل نحو جبهتي وحطتا عليها كجناحَيْ لقلاق، لحظات قبل أن تنزلقا باتجاه العينين. وبنفس الصيغة التي فركت بها عينيّ عندما رأيته يخرج من البحر أول مرة، رحت أفركهما ثانية لأتأكد مما كنت أراه. كانت يداي تتعرقان، وكان الكرسي الطويل فارغا فعلا!

عاودت النظر، وحوّلت بصري بمدّ الأفق يمينا ويسارا، فلم يكن له أي أثر، فقط أجراف ممتدة، وحافة سحيقة، وأمواج متلاطمة... "أتراه عاد إلى البحر الذي خرج منه؟" قلت وأنا أتمنى قي قرارة نفسي أن يكون البحر قد ابتلعه فعلا.

لا شك أنني أحلم من جديد!

"لا شك أنه في السافلة يمضي في رحلة العودة الآن"؛ لكنني نظرت إلى السافلة ثانية، وثالثة، ورابعة... حتى إنني دنوت من الحافة حتى أصابني الدوار، ونظرت عميقا فلم يكن هناك!

لا شك أنني كنت أحلم طوال الوقت إذن!

"غريب ما يحدث!" قلت في نفسي قبل أن أتابع، وبعضي يأكل بعضي ممزقا بين القلق والارتياح: "كنت متأكدا من أنه كان مجرد وهم من نسج خيالي، محض هلوسة، كابوسا بشعا وقد استيقظت منه..."

عندما وصلت إلى الكرسي الطويل كان دماغي يكاد ينفجر من كثرة التساؤلات والافتراضات التي طرحتها؛ فوصلت مجهدا كأنني قطعت رحلةً من ألف ميل. أمسكت بذراع كرسيي الطويل، وتهالكت عليه؛ تنفست بعمق لكني لم أشعر بأي ارتياح، بل تضاعف شعوري بالاختناق أكثر.

تمددت وصرفت أفكاري عن كل ما يحيط بي، بحثا عن سلام داخلي بعيد المنال، وبدا لي كما لو أن صمتا عميقا غمر المكان واستحوذ على كل شيء، حتى إنه كان بإمكاني أن أسمع دقات قلبي تتنامى إلى سمعي، وتتعاظم لتملأ الفراغ من حولي وتستحيل إلى ضجة كبيرة كقرع طبول "الأودايكو".

اِلْتَبَسَ كل شيء في دماغي فلم أعد أميز بين الحقيقة والوهم: هل كل ما حصل معي حتى الآن كان مجرد حلم؟

أهو ممكن أن يرخي الحلم بظلاله على الواقع، فيتماهى معه، إلى هذا الحد؟ وإلى أي حد يمكنه أن يمتد أو يتواصل؟

وإذن كم مر عليّ من الوقت هنا؟

أتراني كنت نائما طوال الوقت؟

ما الذي أيقظني، إذن، وبعث بي خلف الشجيرات لأقضي حاجتي؟

(...)؟

في أي يوم أنا؟

(...)؟

(...)؟

أعلم أن هذا الذي يركض في دماغي الآن، كذئب بري من المناطق القطبية، لن يكون التفسير المعقول لما رأيت، كما أعلم بأنه لن يكون التفسير الوحيد على كل حال؛ لكنها جميعها ليست التفاسير التي ستجعلني أرقد بسلام!

تملّكني الشك والارتياب، وتقاذفتني الأفكار المقيتة فيما يشبه الوسواس القهري، فقمت من على الكرسي الطويل، كشبح يستيقظ من جَدَثه بعد رقدة دامت ألف عام، وتوجهت نحو الحافة في مرة لم أعد أعدّها... ونظرت إلى الهوة السحيقة فأصابني الدوار، وتصاعدت معدتي الفارغة باتجاه حلقي استعدادا للغثيان...

وللمرة الألف لم أعثر له على أثر!

جثوت على ركبتيّ، ووضعت راحتيّ على الأرض، لحظات؛ ثم انهمرت أمام عينيّ عصارة القيء سائلة شفافة...

*** ***

الفصل الثاني عشر:

اللُّهوة والرحى

"أنت هناك؛ انتبه!"

سمعت صوتا قادما من الخلف فقفزت من مكاني، وكدت أهوي كاللُّهْوَة في فم الرحى السحيقة، فتداركت نفسي بصعوبة، وصرت أزحف على أربع، قبل أن أستعيد توازني وأعود لأركع، ثم أجثو على ركبتي، من جديد، وألهث بشدة. استعذت من الشيطان الرجيم، اللعين، الخبيث... لكنني عندما التفتُّ وجدت الذي استعذت منه خارجا من البيت، وقادما نحوي.

"أَ.. أَ.. أَنْ.. تْـ.." نطقتها متقطعة كزفرات النزع الأخير من الموت، وقد أصبحت أنفاسي حارة وقاسية وتأبى الخروج؛ وبدأت أسمع صوتي كأنه ينبعث من بئر عميقة!

"كيف غاب عني أن أفتش عنه داخل البيت؟ كيف؟؟؟"

أقبل عليّ وقد غير ملابسه! أو بالأحرى ارتدى أحسن ما أحضرت من ملابس: قميصي المخطط، وكنزتي التي بلون الكرونادين، ثم معطفي الشتوي الكشمير.

أعترف بأنه بدا معتدلا في وقفته ووسيما جدا، وبكلمة: أفضل مني بدرجات وقد واءمته الملابس كثيرا؛ أما أنا فكنت أبدو دائما مهلهلا، مرتخيا، فيها. فاعتصرتني الغيرة، بل الحسد، خاصة الآن وقد تسايلت بقايا القيء والمخاط من أنفي وشفتي المرتعدتين.

- "انتبه؛ قلت لك!" كرر عبارته ثانية وهو يشير إلى الحافة، ثم أضاف: "الحافة شديدة الانحدار، وهي خطيرة جدا!"

قلت في نفسي وأنا أنظر إليه وهو يَعبُر بثقة فوق صخرة متشققة: "لقد جاء من يجب عليّ قتله".

كنت ما أزال جاثيا على ركبتيّ، مذهولا تحت وقع الصدمة، أحاول أن أستجمع أنفاسي المتهالكة والشعور بالخيبة والإحباط يتملكني. أحمل في رأسي جبلا من المشاعر المتضاربة، المتلاطمة كأمواج هذا البحر المتناقض أمامي: ساكنة شفافة أحيانا، وثائرة مرعبة أحيانا أخرى؛ وأنا أرزح تحت هذا الثقل الذي ناخ بكلكله على منكبيّ فسحقني، ولم أكن أعلم بأن المشاعر قد تجر على صاحبها كل هذا. كان النهار في آخره، والشمس الباهتة البرتقالية تستعجل في الرحيل وتستحيل إلى البنفسجي الغامق. بعض المخاط والقيء قد تيبّس على جانبي شفتي السفلى، وأذني تصدي وتصدر صفيرا، أو أزيزا شبيها بالأزيز المنبعث من أسلاك الكهرباء ذات الضغط العالي.

عندما اقترب مني، وكنت ما أزال جاثيا على ركبتي، لم أعد أرى إلا ساقيه وحذاءه الشتوي الغليظ، الشبيه بأحذية الجنود، وهو في الواقع حذائي، كما هي ملابسي التي كان يرتديها. رفعت رأسي ونظرت إليه، فلم يكف عن النظر إليّ بعينين رصاصيتين وأنا جاث أئن، وكانت نظراته تزعجني.

بعد موجة القيء العنيفة أصبح حلقي جافا، وفمي بطعم المرارة، وأخذتني رغبة جارفة للانتقام استيقظتْ في داخلي كما تستيقظ الشهوة فجأة في كيان راهب عجوز، وهو يعلم بأن أدوات تحقيقها تعوزه؛ ودون شعور مني وجدتني أكلم نفسي بصوت خفيض: "لا يمكن أن يكون هذا الذي يقع حقيقيا، لا يمكن...!"

"إن هذا تتويج لحياتي القذرة، لكن كيف لحياة أن تصبح قذرة على هذا النحو؟ لقد نجحت في طرده من دماغي، ومن عالمي، فمن الغبي الذي استدعاه الآن؟؟؟"

رد عليّ اللعين وكأنه سمع كل ما قلت: "الكاتب من استدعاني..." فلم أشعر إلا وأنا أقول بيأس: "يمكنك أن تعتبر الكاتب قد مات الآن!"

"ممكن!" قال ببرود ثم أضاف بأنه يعتبر هذا مجرد مشكلة سطحية يمكن تجاوزها، لكن ما لا يمكن تجاوزه هو أنني ورطته فيما يكفي من المشاكل! ولأنها كثيرة فينبغي، حسب رأيه، أن نبدأ بحل المشاكل القانونية؛ أي كيف يجعلني أموت من هذه الناحية أيضا! قال؛ ثم ابتسم، أو لعل ابتسامته اتسعت قليلا فقط، لأنه كان مبتسما دائما، واكتفى بذلك للحظات؛ فأجبته بصمت مماثل للحظات أيضا... وأنا أتأمله، أو بالأحرى أتأمل ملابسي عليه قلت: "جمعتَ الحقارة والشؤم، ولذلك سأطعمك إلى الغسالة الكهربائية."

- أنت لا تتوقف عن الهذيان ولهذا أحبك! (أجاب)
- أجل؛ يمكنك أن تلقي اللوم عليّ كعادتك، وتستمتع باستفزازي أيضا.
- لا أعلم لماذا تصر على أن تدفن رأسك في الرمال؟ لا أعلم لماذا تجهد نفسك لتحملها على الاعتقاد بأنني عدم؟ لكن ليكن في علمك إذن: أنا لست مجرد إبداع من إبداعاتك السخيفة، كما يتهيأ لعقلك المريض، فأنا زاخر بالحياة أكثر منك، وقد حضرت إلى هنا لأمنحك فرصة ثانية لتبدأ من جديد!!!
- و...
- و... وأنت تهدر وقتي معك هنا؟

- من تكون أيها اللعين؟
- وغد، لعين... يمنحك فرصة ثانية؛ فهل تستحقها؟ (أجاب على السؤال بسؤال، وبنبرة تحدٍّ متعالية).

كنت أتأسى على حالي التي وصلت إلى الحضيض، وأكاد أتميز من الغيظ جراء ردوده المستفزة الجاهزة، ورغم ذلك جاريته في الحديث وقلت: "أنا أكره البدايات الجديدة." فصمت لحظة ثم قال:

- الآن تريد أن تلعب دور الضحية ! لكن هذا ليس ضمن دورك...
- أنت مثلي مجرد دور آخر!
- وأنا راض عنه...
- طبعا لأنك منحت نفسك كل ما تريد؛ ماذا تريد أكثر؟؟؟
- يجب أن نتقبل حياتنا كما هي كي لا نتعذب... (قال؛ فقاطعته):
- تقصد كي لا أتعذب، إذ ماذا تعرف أنت عن العذاب؟
- ليس خطأي إن كنت سيئا في أدائك؛ فقد كنتَ دائما هكذا، تعتمد على تقنيات السرد السخيفة، وكأنك تسعى إلى مجرد قتل الوقت...

كان يجرني إلى حافة اليأس بدهاء، ورغم أني كنت أعي جيدا بأنه يسحبني إلى قاع الرمال المتحركة، إلا أنه كان بارعا في ذلك، كما كان بارعا أيضا في إفساد كل الأمور من حولي، لذلك طلبت منه أن نغير الموضوع فقال بأنه ليس لدينا خيار آخر، وأن هذه ليست مشكلة في الواقع! بينما كنت أرى بأنه هو نفسه مشكلة، بل هو كل المشكلة. وعندما أخبرته برأيي فيه، أجاب بأنه مجرد جندي، في رقعة شطرنج كبيرة، وككل جندي في ساحة معركة فإنه لا يفهم بالطرق الديبلوماسية؛ لكنه في المقابل يجدني معطوب البديهة، لا أتعلم بسرعة، ولا أصلح للقيادة، ولا حتى للجندية، لأنني أرى الأشياء كما أريدها أن تكون، وليس كما هي في الواقع... ونصحني باستشارة أخصائي نفساني، فأبلغته بأن غروره اللعين سينتهي به أيضا إلى الموت.

"اطمئن، أنا لا أفكر في الموت الآن!" (قال) فعقبت على كلامه بأنه سيكون جميلا لو أن دماغه الصغير انتهى مشدوخا على صخور الهاوية السحيقة: "ستكون نهاية بلمسة ساحرة"؛ على كل حال هذا ما قاله "ميرسو" سابقا، وأنا أوافقه الرأي الآن.

كنا كعضوي عصابة وقعا في ورطة سيئة، فوقعا في بعضهما، وكل واحد منهما يرى بأن صاحبه هو السبب؛ والأسوأ أن كل واحد منهما كان يرى خلاصه الوحيد في قتل صاحبه. اقترحت عليه، مرة أخرى، أن نتوقف عند هذا الحد: أن نفترق، وكل واحد منا يأخذ طريقا في اتجاه مختلف؛ فقال بأنني لا أتوقف عن صناعة الأكاذيب وتصديقها.

أربكني جوابه وجعلني أتأرجح كالبندول الذي يتدلى في ساعات الكنائس وقد ارتخى زنبركه، فلم أعد أتحكم في مشاعري العارمة، والجارفة، والمتناقضة... لكنني بدأت أحس بأن هذا البندول بدأ يتباطأ ليستقر عند الخوف والكآبة، بل الرعب المَرَضي المفضي إلى الغضب والتصرفات العنيفة الحادة، الميّالة إلى تدمير الذات والآخر، في صمت! ومعروف بأن أشد أنواع الصمت صخبا هو صمت المقابر، وصمت ساحات المعارك بعد نهايتها، وصمت الساحات التي مر منها وباء الطاعون... فالصمت في هذه الحالات قاس ومدمر، له صوت أجش كصوت عربيد منهك بعد علاقة جنسية عنيفة!

"العالم قاس!" همست بصوتي الأجش وكأنني أعيد اكتشاف العجلة! فقال بأنه يعلم هذا كما يعلم بأني لست الأم تيريزا؛ ثم سألني عن جدول أعماله؛ فأجبت: "لا تسألني عن أمورك"؛ فرد بحديثه المغرق في الألغاز: "أنا لا أسأل عن أموري بل عن أمورك أنت! فقد جرى تعديل على الخطة، وعليك أن تعرف إن كنت تريد مواصلة المسير..."

- الحياة؛ لم تكن أبدا لعبة تأسرني... (قلت فيما يشبه الهمس دائما)
- حاول ألا تبدد عمرك إذن...
- لطالما بددته.. وإن كنت سأسأل عن شيئ فليكن وضع نقطة نهاية لجدول أعمالك... (وشدّدت على الجملة الأخيرة)
- إن كان هذا ما تريده فليكن، لأني أعشقك... (سكت برهة ثم أردف مختصرا كل المعاني): "هل هذا وقت قتلي أم أنك تقتل الوقت بي؟"

أطبقت أضراسي على بعضها، مرة أخرى، وقلت باستنكار: "يجب أن نموت جميعا يوما ما؛ ألا تريد أن تموت أنت؟" ثم استدركت: "هل عليّ أن أذكّرك بأنه حتى في قصص العشق العنيفة فإن أجملها هي التي لا تكتمل إلا بالموت! ثم إنه ليس علينا أن نقلق في مسألة القتل لأنه مجرد عمل، كغيره، فقط ينبغي ألا ننظر إلى عيني القتيل... وأن ندعه يدير ظهره..."

- "تبا.. وهل هذا ضروري؟" (وأدار ظهره فعلا في تحدٍّ وقح)
- "لا تقلق؛ فلن تكون وفاتك على يدي!" قلت منافقا، وأنا أضمر له كل الشر، وبدأت أتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليه؛ فقمت من على ركبتيّ وجلست مقرفصا.
- " أعرف فيما تفكر، لكن ليس لديك أي فكرة عما أفكر فيه أنا..." ردد مرتين، هامسا، وهو يتوجه ببصره نحو المنحدر. ثم؛ لم أشعر إلا وهو يستدير بسرعة ويفجأني بركلة من حذائه العسكري الثقيل. وقبل حتى أن أستوعب المفاجأة عالجني بركلة ثانية أقوى... فصحت كما يصيح حيوان جريح. كانت الصدمة قوية كما لو أن مقطورة شحن هي التي صدمتني وقذفت بي أمتارا إلى الخلف؛ وللمرة الأولى شعرت حقيقة بشعور الكلب الذي صدمته قبل أيام.

بدأت أذني – التي كانت تئز قبل حين – بالنزيف، وقلت في نفسي:

"ها أنت تتمنى أن تلفظ آخر أنفاسك من منخريك حتى تريح وتستريح..." كما تنبأ السيد "سامسا" من قبل؛ ثم حاولت أن أقف، حتى أواجه مصيري بشجاعة وسعادة كبجعة مذبوحة، لكنني لم أستطع، ارتجفت ركبتاي الواهنتان ولم تعودا قادرتين على حمل جسدي الذي بدا أثقل من المعتاد. مشيت خطوات وأنا كالمخمور الذي يحاول أن يعتدل في مشيته، وترنحت إلى الخلف وسقطت. كانت يداي ترتعشان، وجسدي طيِّعا كالعجين، وصوتي الهامس بيأس يردد عبارات لم أفهم معناها: "ها قد وصلنا إلى بوابة النهاية فمن يفتحها ليطل على العدم؟" وانتابني شعور عميق بأنني أستحق هذا: فقد كنت ضعيفا دائما، لكنني كنت شريرا دائما أيضا. ورغم أنني كنت أكره هذا ال"كوكا" إلا أنني كنت مقتنعا في أعماقي بأنه ليس السبب في كل ما جرى، بل أنا!

لمعت في عيني نظرة أخيرة مرتعبة، لكنها مخزية وحارقة أيضا، ثم اعتراني شعور بالضيق والاختناق، وأوهمت نفسي بأنني في آخر مراحل الكابوس، وعليّ فقط أن أبذل جهدا إضافيا لأستفيق منه. جرى كل شيء في جزء من الثانية، وقبل أن أستشعر ذلك أحسست بقبضة شديدة تمسكني من رقبتي، وتلقي بي بعيدا كقشة! هل صرخت؟ لا أذكر! كل ما علق بالذاكرة أنني وجدتُني في الفراغ مندفعا نحو الهاوية، ورحاها السحيقة قد فتحت فمها بلا قرار، ويداي تسبقاني كأنما تبحثان عن شيء تستندان إليه دون جدوى.

تمسكت أناملي الرقيقة، التي طالما كانت تشبه أنامل عازف بيانو، بأطراف الحافة. في هذه اللحظة فهمت الجانب الشرير فيّ كما لم أفهمه من قبل. لقد تكشف ساطعا بوضوح وصلف في عينيّ الجاحدتين. زفرتُ من أنفي كتتين عجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأرخيت رأسي إلى الوراء فبرزت تفاحة آدم كأنما تستعد للذبح، بل تستفزه وتتحداه!

ثم رأيت العالم السفلي يتناهى إليّ من بعيد؛ لحظتها توقف كل شيء عن الحركة، فقط أنا وحدي أهوي باتجاه الهاوية السحيقة وفوقي مباشرة ارتفع صف من النوارس المنسابة مع الريح؛ ملأتُ رئتي برائحة الملح التي أحبها وقلت: "كنت شريرا دائما، لكنني لم أكن شريرا كما ينبغي..."

قلت أيضا وأنا أستشعر رجليّ تتدليان نحو النقطة التي تحبس الأنفاس: "ها أنا أحقق نبوءة السيد "ميرسو" كذلك؛ وأنا حزين..."

"... حزينا عندما بدأت الأمور.. كنت؛ وحزينا عندما انتهت.. كنت أيضا..."

ثم أغمضت عيني وانتشيت. كانت تغمرني حالة من الإشراق، وبدا كل شيء مزيجا من التكعيبي والسريالي المرعب والممزق "للغيرنيكا"، القرية/العالم الذي يبدو من خلال اللوحة غير مستعد لأن يسامح وينسى ما حدث حتى بعد أن تجاوز لحظة الفاجعة المفاجئة، وأصبح في مرحلة السخرية الفلسفية المريرة والاستهزاء الماكر، من كل شيء حتى من الموت؛

بل بالذات من الموت...

*** *** ***

الفصل الأخير/وصل

يوم خريفي آخر يقترب من نهايته ويستعد لاستقبال الغروب، وغيوم متشابكة لا تكاد تسمح إلا لضوء قذر بالعبور، تأبى أن تتبدد أو تستحيل مطرا.

في الجو يعبر سرب النوارس سماء البيت الهادئ، الرابض على الشاطئ الصخري المقفر، وإلى جواره تتلوى طريق، غير معبدة وعرة، كثعبان. وفي المقدمة – غير بعيد – تبدو أجراف ممتدة ذات اليمين وذات الشمال؛ حيث تتلاطم الأمواج وهي تتكسر على الشاطئ المهجور.

يقترب سرب النوارس من الحافة شديدة الانحدار، ثم يواصل عبوره المنساب مع الريح الباردة باتجاه البحر؛ يصفق أحدها بجناحيه، مرتين، وينأى بعيدا.

يستدير حيوان "الكوكا" الواقف على نتوء صخري بارز، وللمرة الأولى يتوقف عن الابتسام؛ يخرج نظارة سوداء من الجيب الداخلي لمعطفه الشتوي، ويضعها على عينيه، ثم يتحرك مغادرا، وهو سعيد بموضوع قصته الجديدة عن الكاتب الذي يشبهه كثيرا، والذي عثر على جثته – مقتولا أو منتحرا – على شاطئ مهجور...

"أعتقد بأن هذا سيغطي صفحة الحوادث لهذا الأسبوع!" (يقول لنفسه وهو يغادر المكان).

*** ***